

أحمد بن هِطال النلمساني

رَحْلَةُ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ

”باي الغرب البحراني“

إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

تحقيق وتقديم
محمد بن عبد الكريم

الناشر
عالم الكتب
القاهرة

أحمد بن هـ طال التمساني

رَحْلَةُ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ

"بأبي الغرب البحراني"

إلى الجنوب الصحراوي الجزائرى

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

108

دار

الناشر
عالم الكتب

القاهرة

108

أحمد بن هطال النلمساني
١٢٨١٥٥

رَحَلَةُ مُحَمَّدٍ الْكَبِيرِ

”بأبي الغرب الجزائري“

إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

Centre de Formation Administrative
de ...
N° d'inventaire : ...

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

الناشر
عالم الكتب

الطبعة الاولى يوليو ١٩٦٩
النشر : عالم الكتب
الطبعة : تيجر

٣٨ شارع عبد المالح نروت القاهرة ت ١٤٠١
٢٩ شارع الجبش القاهرة ت ١١٩٢

واحوجهم الى توفيقه وتيسيره ارحم الراحمين
 يفتح اليهم بيته باحدة ابي هلال كالباب من الفتح العالي
 ان يجبر صدى قلوبهم ويفجر جميع ذنوبهم وان يحل لهم
 يستعد لاند لمعادنا انه ولي ذلك والقادر عليه وعلى
 الله على سيفه محمد وواله عده ما ذكره الله اكرموا
 عجل عن ذكر القائلين وواحد عونا ان الجنة لله رب
 العالمين تمل تقديده هذه الاوراق بعشيه يوم
 الخميس الثاني والعشرين من شهر الله في القعدة
 سنة اثنى بعد ايام تيسر والاله على يد عميه
 ربه واحوجهم اليه المعرفه بنبه وتقصير محمد بن
 البشير بن محمد اقراى التماساى دارا ومنشورا غير
 الدله ولو الادبه والاحتياضه وجميع المسلمين والمسلمات
 والموصى والموصيات والاموات والاعوان والافعال
 العلى العليم وواحد

في عونا ان الحمد لله
 رب العالمين
 سنة ١٢٠٢
 ٢٢
 ١٢٠٢
 ٢٢

والله وحده
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد

قد اشتهر الفقيه الثمري النيسابوري لسائر الروايات
وبار من الروايات في بيان العباد من النيسابوري
ابن محمد بن هلال التلعكبري كثير العلم وحججه
الافواه رضي الله عنه
الحجج كلها في الاصلح وجعله يدل بسكنا
وتحترق الارواح ومصير الاشباح لهم وحسن
ومعظم الله نطقه بل تنطق المبلغ لكل منته
والخلافة والسلاط على نبيهم ومولاهم محمد افضل
مرسلهم وموطنهم وعلى والده واصحابه ماحرك
سهم الصلح نصيبا امرا بغير فان على السلام
من اجل انهم قتلوا واكتمل بحاسنهم وحسنهم
فهموا حرموا من يخلو عليه علم العربية كان
امموا واعظم ما تنفع فيه الرخلة من المسئلة
وتصرف اليه الصنع التوكيد ان الله عرفته فدمه
الدم وبه حقت ملكه اخلافة والشمس
فاشتغل به علماء كل فكر وصنعت فيه اديع
عمل محض حتى ملئت منه الخزائير وكثرت
فيه الرسل والارواح والبر في بعضه آخر بطريق
كثيره وعاء آخر آخر في كل واحد من بعض
اكثر في المسئلة في مشرب مشرب من عجب وعمل

تصدير

تحقيق مخطوط قديم على فني وهادف في نفس الوقت : فهو عمل فني لأنه يقوم على قواعد أساسية ويتطلب مهارة وإخلاصا وتجردا . وقليل من الناس في كل أمة وكل جيل يستطيعون القيام بهذه المهمة الشاقة الدقيقة . أما كونه عملا هادفا فلأن بحث المخطوط يخدم فكرة ، وبالتالي مصلحة وطنية وإنسانية . ولعل هذه من الحالات النادرة التي يجمع فيها المرد بين إخلاصه لفته وإخلاصه لهدفه الإنساني . وإن ظاهرة العصر الذي نعيشه ، ظاهرة التحرر من الاستعمار ، تبرز الجمع بين هذين الإخلاصين .

الذين عرفوا الاستاذ محمد بن عبد الكريم ، محقق مخطوطة « رحلة محمد الكبير » يدركون ما أعنى . فهو يبدي كثيرا من الاهتمام بالمخطوطات ، ولا سيما تلك التي تناول حياة الجزائر عبر القرون الأربعة الماضية . وقد أطلق على عدد من الأعمال التي قام بتحقيقها كما أطلق على عدد من المشاريع التي يستزم بحث الحياة فيها . وقد وجدت من خلال ذلك كله إنسانا ذووبا مخلصا لمهته الثقافية .

وإن نظرة سريعة إلى المؤلف وموضوعه تؤكد ذلك ، فابن هطال شخصية هامة في تاريخ الجزائر ولكنها مندورة . فهو كسفسار ، وكاتب ودبلوماسي ومحارب قد عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد الجديدة بالتسجيل والبث . ليس ابن هطال نفسه هو الذي يعرف التاريخ بأنه « من أجل العلوم قدرا » وأكلها محاسن وغرا . . . إذ به عرفت قدماء الأمم . . . » ؟ وقد سجل في كتابه رحلة محمد الكبير ، باي وهران إلى الجنوب « مبتدرا » كما يقول ، « بالسوانح سراحله وبيننا منازلنا ومنازلهم » وإذا كانت شخصية ابن هطال

هامة ثقافيا فإن موضوعه هام من عدة جوانب . فإن الرحلة تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستثنى عنها أى دارس للجزائر خلال القرنين الماضيين . وبالإضافة إلى ذلك فإن محمدا الكبير ، الذى كان سينا فى تأليف الكتاب كان شخصية جديرة بتسليط الأنوار ، لأنه تقلب فى مناصب مختلفة وشهد تطورات كثيرة وساهم بقسط وفير فى خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات . قد شغل منصب باى ، واشترك فى الحرب ضد الأتراك ، ولاد بنفذه حملة ضد الصحراء لإخضاع أهلها إلى سلطة الداي ، كما عرف عنه أنه قد شجع العلماء والأدباء والطلبة وأقام المدارس والبيارات .

وللنا ندرك ، من ذلك كله ، أهمية هذا الكتاب وقيمة العمل الذى قام به الأستاذ محمد بن عبد الكريم . وإنا نأمل أن يوفق فى أداء رسالته لنفض الغبار عن الآثار التى ظلت البسّ أنها قد دُفنت ، بينما هى فى الواقع ما تزال حية غنية لا تحتاج إلا إلى يد مخلصه وقلم شريف وقلب ملء بحب الإنسان .

الدكتور أ . سمير الله

٩ جوان ١٩٦٨

تقديم

هذه سابعة سبع مخطوطات^(١) ، قد قنا بثقة بها ، وبذلنا جهداً كبيراً في إخراجها من زوايا الإهمال وهاليز النسيان ، حتى يستفيد منها الجمهور ، ويطلع على ماضي أجداده وبلادهم ، متوخين بذلك إفادة الطالب من محتوى المطلوب .. ولكل من تلك المخطوطات موضوع خاص ، ووجهة نظر ، من حيث معالجة البحث ، وطريقة التأليف ، وأسلوب التعبير .

(١) و موضوع هذا المخطوط ، مرحلة معينة من مراحل التاريخ الهباني ، وفترة محدودة من فترات الزمن ، فقد عاشها المؤلف ليقيد حوادثها ، ويحبر ما هو أجدر بالتعبير ، فيطلع عليه من يأتي بعده من أبناء البشر . وذلك كله تلبية لباي وهران محمد الكبير ، ونزولا عند رغبته ، وترتبا بهذا التأليف إليه . ولم يال المؤلف جهداً في تحديد الأيام وضبط الساعات ، ولم يفت ذكر أماكن تلك الحوادث .. بأسمائها المروفة بين أهلها ، « أما بعد : فإن التاريخ من أجل العلوم قدراً ، وأكلها بحاسن وطراً ، إذ به عرفت قدماء الأمم ، وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم .. أردت أن أذكر منه نبذة ، أخدم بها قاصم المبتغين ، ومدوخ المارقين ، مقتصرأ على ذكر خروجه إلى جمة القبلية عام تسعة وتسعين ومائة وألف ، مقدراً بالسوانح مراحلها ، ومبيناً متنازله ومناهلها » .

(١) وهي : ١ - أخبار المسلمين والأدياء ، لحمدان خوجة . ٢ - وشاح الكتاب لتعود بن روية . ٣ - الصفة الرضية ، لابن ميسون الجزائري . ٤ - رحلة أحمد باي . ٥ - رحلة محمد الكبير باي وهران . ٦ - بهجة الناظر ، لعبد القادر للصرى . ٧ - القول الأوسط لباي حل بالشرب الأوسط ، لأحمد الشفرائي .

(ب) وطريقة التأليف في هذا الكتاب تقليدية بحتة ، فهي تعتمد على سرد الوقائع وذكر الحوادث وكفى . فلا تحليل ، ولا تحليل ، ولا سبب ، ولا سبب . ولعل ذلك راجع إلى شخصية المؤلف من حيث ثقافته المحدودة ، وعقيدته الصوفية التي توحى إليه بأن كل ما كان أو سيكون ، فهو من الله جاء وإليه يعود .

(ج) أما أسلوب التعبير في هذا التأليف ، فقد جاء بصورة مطابقة لمصر للتأليف ، مبررة لنا من مدى ثقافته التي كانت قهبة أكثر منها أدبية .

ويبدو لنا ذلك جليا في تطوير فقراته بأى الذكر الحكيم ، مثل قوله : « الحمد لله فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا »^(١) ، كما تضح لنا عقيدته التسليمية في جملة الاعتراضية ، مثل قوله : « فإذا نظر العاقل هذا الجبل ، ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى ، التي لا يمحزها يمكن — فبهان مكون الأشياء بقدرته ، ومظهر العجائب بمحكمته »^(٢) . ومؤلفنا يكثر من الأسجاع الركيكة وعسكاف في الإتيان بها ، ولو أدى به هذا العسكاف إلى التضحية بالمضى المراد ، كما نجد — أيضا — يسوق أمثالا عامة البنى ، أقلبية النزعة . ولم يرب الكتاب أبوابا وفصولا حسباجرت به عادات للصنفين القدامى . ولعل ذلك راجع إلى ضيق الوقت ، وقدان المهمة ، لأنه قد حير أثناء سفره لا يسه فيه الترتيب والتبويب .. « لأنى قيدت هذه الأوراق في أثناء سفر » ولم تصحى كعب .. أسعفين بها »^(٣) .

(١) مقدمة الكتاب ، ص ٢٠ .

(٢) ص ١٠

(٣) ص ١٠

ثم لم يظفر فيه فيما بعد ، لينفتح جده ، ويصل عباراته ، ويترتب معانيه .
ومما يمكن الأمر ، فإن هذه الرسالة ذات أهمية كبرى من ناحية الحقائق
التاريخية ، لا سيما منها الأقلية التي قلما نجد لها في غير هذه الرسالة .
وقد أحيينا أن نقدم هذا التأليف - وبالأحرى هذه المذكرة - إلى
جمهور المثقفين لا سيما منهم للزخمين الذين لا يودون أن يدمروا كبيرة
ولا صغيرة تنويعهم دون أن يلقبوها على جميع جوانبها ، حتى تتكشف لهم
حماقة على ما هي عليه ، فيمدوا النظر في معانيها ومبانيها وأصباغها وخامضها .

التعريف بصاحب الرسالة

نسبه : هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن
عطال التلساني .

وظفته : كان كاتباً ومستشاراً لحمد الكبير بأى الإمارة الوهرانية ،
ومبعوثاً له في المهمات الخارجية . فقد حدثنا أحمد بن علي بن سخعون في كتابه
« الثغر الجاني في انقسام الثغر الوهراني » أن عمداً الكبير - عندما كان
يستعد لفتح وهران - وجه كاتبه أحمد بن عطال مع قاضي الحلة ، مصحوبين
بهديايا إلى سلطان المغرب الأقصى ، ليسمح لما بشرأ ما يحتاج إليه الباي من
أسلحة حربية .

ومن هناك ، توجه أحمد بن عطال إلى جبل طارق ، حيث وجد - في
احتفائه - قطارين ز نصف قطار من البارود قد اشترأها الباي من الإنجليز ،
فبأها وعاد بها إلى بلاده .

وبعد وفاة الباي محمد الكبير ، ظل ابنه عثمان بأى يشغل نفس المنصب

الذى كان مشغولاً به أمان حياة أبيه ، ثم لما توفى أباه المذكور ، أصبح ابن هطال كاتباً لأبى مصطفى بن عبد الله المصطفى رابع بابات الإيالة الزهرانية .

وفاته : استشهد ابن هطال في معركة وقعت بين الأكراد وابن الشريف البرقاوى وأنصاره وذلك في أوائل ربيع الأول سنة (١٢١٩ هـ) .

وكان دوران رضى هذه الحركة المشنومة في مكان يقال له « فرطاسة » يقع بين « أميننا » و « واد المبد » ، وقد انتصر - في هذه الحركة - ابن الشريف البرقاوى وأنصاره انتصاراً عظيماً ، فقتل عدد كبير من جنود أبى مصطفى . ومن بين هؤلاء القتلى ، كتاباء الحاج أحمد بن هطال وأبو عبد الله محمد التزلاوى .

وفي نفس الحركة ، يقول حسن خوجة التركي - في تأليده « در الأحيان » :

« فرطاسة » يومها ترى الجنود به ما بين قتل وأمرى غير ناجيا
فأبى جاء بجيش لا تقاد له به يريد لنا العدو باضينا
لم يحقق له سى ولا أمل بل جاء جده صفر الكف با كينا
فاليوم لابن الشريف عز فيه على بأى الأعاجم لولا الدين لا دينا^(١)

هذا ما أسكنت أن تأتى به من حياة ابن هطال ، بعد أن بذلنا جهداً كبيراً في الاستعانة عن أخباره في مظان المصادر التى بين أيدينا ، ولعل الله ينسأ في أجلتنا ، ويتيح لنا الفرصة حتى نستكشف في المستقبل ما غاب عن أعيننا في الوقت الحاضر ، و « لكل أجل كتاب »^(٢) .

(١) هذه الأبيات مل وزن البحر البسيط ، بحوالة العروض ، مقطوعة الشرب .

(٢) لكل أجل كتاب : سورة « الرعد » الآية : ٢٨ .

أبى محمد الكبير

التعريف به

اسمه : محمد بن عثمان السكردى .

كنيته : أبو عثمان ، أبو علي ، أبو محمد ، أبو أحمد ، أبو الفتوحات ،
أبو النصر ، أبو المواعظ ، أبو الربيع ، أبو الفتح .

لقبه : الكبير ^(١) ، الأكمل ^(٢) ، المجاهد المنصور .

أمه : جارية ، اسمها زائدة ، أهداها لأبيه مولاي اسماعيل سلطان المغرب
الأفصى ، لودة كانت بينهما . وأما أخوه محمد الرقيق (أبو قابوس) فأمه مرة ،
اسمها خديجة وأبوها من أشرف (المدبة) يقال له : محمد بن عيسى المداني .

أبوه : أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم السكردى ، كان خليفا على
مليانة ، ثم ارتقى فأصبح بابا على تيطرى وأسرارها . وكان بابى تيطرى محترما
لدى الأتراك ، ومعتبرا عند باشواتهم ومفضلا على سائر البايات . وذلك لأن
تيطرى أول ناحية خضعت للأتراك بعد مدينة الجزائر .

وتوفى عثمان بمدينة « مسكرو » ودفن بها سنة (١١٧٠ هـ) بعدما مكث
في الحكم تسعة أعوام ^(٣) .

دور محمد الكبير في الحكم

كان أبوه عثمان السكردى - مرتبطا ببرى الصداقة مع أبى إسحاق إبراهيم

(١) لقبه بالكبير حسن إكراما له عندما فتح مدينة وهران .

(٢) كان يلقب بالأكمل منذ صغره . وذلك لسرته .

(٣) ويقول لورد بوس : إنه قتل على يد أولاد نابل في غزوة قام بها منهم عندما أخذوا
من طاعة الأتراك آخر (المدة الأمريكية) سنة ١٨٥٧ م ، س ٤٠٥ /

اللياني ، وكان هذا الأخير قائدا على « مليانة » ، ولما توفي الباي عثمان تسكنل إبراهيم بمائلته واعتنى بولديه : محمد الكبير ، ومحمد الرقيق (بوكابوس) .

ولما توسم إبراهيم في عهد الكبير نشاطا متزايدا وشجاعة صادقة وذكاء سادا ، أحب أن يوطد العلاقات بينه وبينهما ، فأصدر إليه ، وزوجه بابته ، ولما ارتقى إبراهيم ومن من الإيالة الثرية ^(١) أخذ منه صهره محمد الكبير وعينه قائدا على « قليته » سنة (١١٧٨ هـ) ، وكانت مرتبة هذا القائد لها الأولوية في الإيالة الثرية ، كما أن مرتبة قائد « مليانة » لها الأولوية — أيضا — في الإيالة الجراثرية ، ولما وجد إبراهيم باي محمد الكبير قد قام بواجبه أحسن القيام ، وأظهر براعته في الحكم ، من إصابة الضكير ، وحسن التسيير : عينه خليفة له سنة (١١٨٢ هـ) وبعد مدة قليلة أشركه في جميع حكومته ، ومنحه إدارة جميع الناحية الشرقية من الإيالة الثرية .

وفي سنة (١١٨٩ هـ) تحرك الأسبان لنزو الجزائر بأسطول عظيم تحت قيادة « الارلادى أوريل » فشارك محمد الكبير في الدفاع عن الجزائر بحماسة الباسل ، وأدى — أبان المعركة — شجاعة عديمة النظير ، وأذاق الجيوش الأسبانية مرارة الحام ، فشكره الداي (محمد عثمان باشا) شكرا جزيلا ، وأثنى عليه الناس أجمعون .

وفي أوائل هذه السنة ، توفي إبراهيم باي ^(٢) فطلبت الرعية من الداي أن

(١) كان مر الباي للإيالة الثرية — إبان احتلال الأسبان لمدينة وهران — ينقل من مستنق ، إلى مازونة ، إلى قلعة بني راشد ، ثم مسكر ، ولما فتحت وهران للمرة الأولى وغادرها الأسبان ، انتقل إليها مر الباي معننى إلى الدلاهم ، ولما استرجعها الأسبان ، نقل مقره إلى مدينة مستنق ، ثم انتعها الباي محمد الكبير ، ونقل إليها مر الأيالة نهائيا .

(٢) وقع اختلاف كبير ل تاريخ تولية الحاج خليل بين المؤرخين ، وقد اعتدنا على (التمر الجاني) لأحمد بن سحنون .

يعين مكانه عمدا الكبير بايا على الإيالة النورية . وكاد الهاي يتمذ رعية للرعية ،
ولا ترمص أحد الأغنياء - اسمه الحاج خليل - لا يبيع هذا المنصب من الهاي
يشن ياحظ وضع في خزانة مال الدولة حسبا جرت به عادة آنذاك ، وهكذا
بقى عمدا الكبير يشغل منصب خليفة ، متربا فرصة متاحة ليرتقى إلى
مرتبة باي .

وفي سنة (١١٩٢ هـ)^(١) اجتمعت الطائفة الدرعاوية من جديد بموضع يقال
له « عين الحوت » قرب « تيوشت » وقررت الخروج عن دولة الأتراك ، نهض
إليهم الحاج خليل باي الإيالة النورية ، وفي أثناء سبره إليهم حدثت عاصفة شديدة
شقت شمل عسكريه ، ولجأة توفى الهاي دون أن يعرف سبب وفاته ، فاستجاب
الهاي لرغبة الرعية ، وعين عمدا الكبير بايا على الإيالة النورية ، ففضى على الثورة
الدرعاوية وغيرها .

وبمجرد جلوسه على كرسى الحكم وتعيينه بايا ، شرع في اصلاح شؤون
الرعية ، والسهر على مصالح البلاد وتنظيم البلاد ، فراح يفسر الأمن ويؤلف
بين قلوب الناس ، وبادر باخضاع القبائل للتمردة على الحكم التركي ، مثل قبيلة
« أولاد علي بن ملحة » وقبيلة « الحشم » وقبائل « قلبية » و « حيان »
و « حورو » وجميع قبائل « بني راشد » . وبعض القبائل كانت مقبلة على الحدود
النورية تحترف الاصوصية وقطع الطريق على المسافرين ، فاحتصر على الجميع
وأخضعهم للحكم التركي وملأ خزائنه بما أدوا له من الضرائب ، كما أدخل بعضهم
في « الخزن »^(٢) فاصبحوا له مفقادين ، والحكومة مخلصين . وأم غزواته

(١) اعتمدنا في هذا التاريخ على كتاب (سمر السمر) للزاري ، مخطوط بمخازننا .

(٢) ثم العرب الجزائريون والوالون للدولة التركية ، والويون لسياستها .

التي قام بها داخل البلاد ، هي غزوة الجيوب الصحراوى الجزائرى التى جهز لها جيشا عرمرما ، وتزح به من « مسكر » مارا بـ « جبل عمر » و « البيضاء » و « أفتر » و « الطويلة » إلى أن وصل مدينة « الأغواط » حيث دخلها بقوة حائلة ، وشاط متزايد ، فانقاد له جميع القبائل التى بضواحيها بما فيها « مزاب » ، واعتبروا كلهم بدوة الأتراك فى القطر الجزائرى ، ورضوا أن يؤدوا لها الضرائب السنوية عن طيب نفس .

وقد وقعت هذه الغزوة (سنة ١١٩٩ هـ) وهى التى حقتها ، ونحن بصدد التقديم لها

ثم أخذ الباي يتنهب لفتح مدينة وهران واسترحاها من الإسبانيين بعد ما أخذوها قهراً من الزمانيين .

مدة مكث الإسبان بوهران

فى مستهل ربيع الثانى سنة (٩١١ هـ) سقط برج الرسمى الكبير فى أيدى الإسبانين ، وفى آخر المحرم من سنة (٩١٤ هـ) تم الاستيلاء على مدينة وهران بأكملها ، وفى صبيحة يوم الجمعة من السادس والعشرين من شهر شوال سنة (١١١٩ هـ) فتحها مصطفى أبو السلاّم باى الأيالة القرية على عهد محمد « بكداش » باشا الجزائر بعد ما مكث بها الإسبانىون مائتى عام وخمس سنوات . وقد أشار المحافظ أبو عبد الله محمد النقيرى فى رجزه إلى تاريخ دخول الإسبان وخروجهم من وهران ومدة مكثهم بها ، إذ يقول :

باسائلا عما بوهران ظهر	من أخذها وفتحها كما انتشر
أحضرها الكمار بالثبات	فيا روياء من الثقات
سنة أربع عشرة مضت	من بعد تسعة قد كملت

فأثخان مع خة سين عدة مكثها بأيدي الكافرين
ثم بدا الرم من الإله وجاءنا الفتح ونصر الله
فتحت سنة ثمة عشر ومائة بعد ألف تسير
في سادس العشرين من شوال صبيحة العشرين خذ مقال
عن يد من قد صير الجزائر جنة كل قاطن وزائر
عبد « بكداش » خير الدعوة وحسن صبره على الصلوة

ثم استردها الإسبان قهراً سنة (١١٤٣ هـ) بعد ما مكث الملوك بها
أربعا وعشرين سنة ، وإلى هذا التاريخ يشير عبد أبو راس المسكري في سنيته :
من بعد عشر وعشر ثم أربعة عادوا إليها فارت أعين النسي

استعداد محمد الكبير لفتح وهران

وفي فاتح صفر سنة (١٢٠٥ هـ) قرر عبد الكبير أن يسترد مدينة وهران
من الاسبانيين ، وأرسل إلى الهادي يشاوده في الأمر ، فأذن له الهادي (محمد
عثمان باشا) في ذلك ، فنادى الهادي في الناس حي على الجهاد وأرسل إلى جميع
نواحي « مسكر » و« لاه » ليخبروا رعيته بما عزم عليه وصمم في تنفيذه ، فأتته
الناس زرافات ووحدانا ، واجتمع لديه جمع فقير من أهل كل ناحية من نواحي
الإيالة الترية في مدة أسبوع منذ انطلاق الخيل ، فجعل أهل تلسان ، وقلية
وما جاورها من القبائل تحت قيادة أبه عثمان ، وتكفل بقيادة أهل مازونة
وستنانم ، وقلعة بني راشد ، وقبائل نواحي الشرق عبد بن ابراهيم (صهر الهادي) .
وجعل القسم الأكبر تحت قيادته ، ثم اتفق مع غلاء « مسكر » وضواحيها
أن يجمع الطلبة والمدرسين وقراء القرآن بقصد لرباط « جبل المائدة » على مقربة
من مدينة وهران ليثبطوا همة الاسبانيين ويحولوا بينهم وبين ما ياتئهم من الخارج

من أسلحة ومؤن ، وكان عدد الطلبة يزيد على خمسمائة طالب ، يرأسهم
محمد بن الوليد التريسي ، وكان الأستاذ محمد بن عبد الله الجلالى والأستاذ الطاهر
بن حواء قاضى « مسكر » قد كتفهما الباي بإعطاء المروس للطلبة أثناء الرباط
كما أسر عليهم محمد بن عبد الله الجلالى أيضا ، ثم أسر بإنشاء ثلاث طواحين به
« سرقين » - خاصة بطلبة جبل المائدة ، وسهل لهم جميع ما يحتاجون اليه ،
ومنع إنشاء المدروس في الأيالة ماعدا جبل المائدة ، فإنه قد رخص في إنشائها
هناك ، وأمر مناديا ينادى في الناس : أن كل من سكن جبل المائدة يعنى من
دفع الضريبة . وإلى الرابطين بجبل المائدة (انرى) يشير أحمد بن سحون
في أرجوزته « النثر الجانى » إذ يقول :

فكم بنى في النثر من أشراك لأهل وهران ذوى الإشرار
وفرو الرابطين فيه سرتنا لكل ما يكتفيه
وهي إذ ذاك بلاد كفر لم يحفظ من يتصددها بالنثر
.....
.....

ورب الرابطين في الجبل من كل حبر من هوى الموت جيل
وكل مقدم هام وبطل منذ بدأ بادي الضلال وبطل
مؤمرا لشيخنا الجلال محمد الاحق بالاجلال

وراح الباي يعزز قواه بشراء الأسلحة من مختلف الأقطار ، فاشترى من
الانجليز مجمل طارق عددا من المدافع ، وكية كبيرة من البارود والراسم ،
واكثرى سفنا من الإفرنج ليحملها بعد ما ضمن لها الأمان والنجاة عبر البحر ،
ثم بث أحمد بن قطال مع قاضى الرحلة إلى المغرب الأقصى ليشترى سلاحا

من هناك ، ومشت له قبائل ازواكية كبيرة من البارد الذي كانوا يصنعونه في جبلهم ، ثم أمر بصنع الربات لجر المدافع ، وبعد هذا الطريق الذي بين مسكر وهران وأطلق سراح جميع المساجين ليكسبوا عوناً له على ما هو عازم عليه . - وفي أثناء استعداد محمد الكبير للهجوم على مدينة وهران ، إذ بزلزلة تحركت المدينة من أقصاها ، فهدم معظم بيوتها ، ولقي عدد كبير من السكان حتفهم ، واستد تيار هذه الزلازل إلى مدينة مسكر ، إلا أنها لم تعصب إلا بخسارة طفيفة جداً . وكانت زلزلة وهران حافزاً استجاباً ل محمد الكبير ، فتحرك من مدينة مسكر يوم الخميس في الثالث عشر من شهر صفر سنة (١٢٠٥ هـ) بخمسة آلاف مقاتل متوجهاً إلى مدينة وهران بقصد فتحها .

وبعد هجومات متوالية على أسوار المدينة ، قام بها جيش الباي في غضون أسبوعين ؛ قرر الباي أن يبقى جيشه هناك محاصراً للبلاد بالذات منتهاء في الدقة والتنظيم ، حتى لا ينسرب للمدينة من الخارج شيء من المؤونة أو المتاد .

وفي أثناء هذا الحصار ، توفي داي الجزائر محمد عثمان باشا خلفه حسن الخزانجي الذي كان قد تبتاه الداي ، ومنذ ذلك الحين أعطى لقب « باشا » . وقد دام هذا الحصار إلى أول محرم سنة (١٢٠٦) حيث رفع بسبب إبرام اتفاق صلح بين داي الجزائر وسلطان الألبان ، ويتضمن الشروط التالية :

(أ) يسمح للألبان أن يبنوا مؤسسة قرب « موسى الكبير » بشرط أن يدفع - في مقابل ذلك - مائة وعشرين ألفاً من الفرنكات (بالصرف الفرنسي) للدولة التركية الجزائرية .

(ب) يسمح للألبان بالنقاط المرجان من شواطئ الجزائر الغربية .

(ج) يسمح للألبان بشراء ألف شحنة من البر (القمح) الجزائري .

(د) جميع الأسان - دون غيرهم من سائر الدول الأفرجية - بإرساء أسطولهم في المرسى الكبير ، تربية أب يدفروا الدولة التركية الجزايرية ثلاثا وستين فرنسا .

(هـ) تسلم مدينة وهران إلى الدولة التركية الجزايرية بجميع ما فيها من سلاح وماعيا من بناء مثلا كانت عليه يوم خروج مصطفى أبى الشلعم سنة (١١٤٣ هـ) .

(و) إخلاء مدينة وهران من جميع الحارث الإسبانين في فترة لا تتجاوز ستة أشهر من يوم تغيير عند الصلح .

وجاء في كتاب « طرغ سجد السوء » : « . . . ودام صواره لما باقتل الصادر منه ، ومن جوده وشدة صواغته ومذاقه وكوره وباروده ، إلى أن قضى في أوائل الحرم سنة ست من القرن الثالث عشر بقتاله الفرنج . ودخلها في اليوم الخامس من رجب الزرد ضحى يوم الاثنين من سنته في فصل الربيع ، وقد أقام النصارى بها في هذه المدة الثانية . . . ثلاثا وستين سنة ، وفي الأولى خسا وماتت سنة . . . واختلفت في كيفية قضى على ثلاثة أقوال ، فقال بعضهم : إن الأمير قضى عنوة ، ودخلها بعد الزوال . وقال آخر : إنها صحت شدة الزلازل الحالة بها في كل حين ، فصر منها النصارى دون علم من المسلمين ، ولما ذهب لما الطلبة ليلا للاختلاف والتجسس ، لم يجدوا أحدا عند أبوابها ، ولا بها حص ولا حارس ، فتسوروا عليها من جهة رأس العين ، ودخلوها فوجدوها خاوية على عروشها ، ثم جالوها ، فرق أحدهم المنارة ، ورفع صوته بالأذان ، وكان جهر الصوت ذا تطريب والحنان ، فسمع المسلمون ذلك وتحققوا من الطلبة بأنفسهم ، فأتوها والأمير المؤيد بالنصر أمامهم ، فألقوا الطلبة مغبلين



على ثلاثة الترتيب ، مدحها الأمير - رحمه الله - في أمن وأمان
وقال المحافظ أبو راس : « إن أمير المؤمنين السيد محمد بن علي استقبل بالبركة
البرية وتسلم لما سابق وهران أشد التحية ، سأل عنه النصارى السلم والتوثيق
ورأوه عليه ، فأعظم الأمان على امتعتهم وأخسهم من غير استمان ، فدعوا
سها وتركوا كل ما فيها للأمر فأخذ منهم القبية ، وقيل تركوها خالية والأول
منها هو الصحيح » (١) .

وسد فتحه لهران ، توجه إلى الجزائر حيث استقبله الهادي حسين باشا
استقبالا عظيما ومنحه « ريشة الانتصار » ، ثم عيه بايا على مدينة وهران وجميع
الإيالة القريبة بما فيها تلمسان وتيطري . وعين ابنه عثمان خليفة له على ضواحي
الرب ، كما عين ابنه عمداً قائداً على قبائل « فليقة » ، وقبل أن ينفلت الهادي
إلى وهران ليحضرها سكانا ، جمع العلماء يستشيرهم في شأن سكان وهران
الذين كانوا أحراراً للأسيان وحرماً على المسلمين فاتفق الجميع على أن يسمح لهم
ما فرط منهم دؤوسهم ، فأرسل إليهم في المين القاضي عبد الله بن حواء ،
وسى أحمد بن سحنون الكاتب بالجامع الكبير ، وسى محمد بن فرجة ،
فأسنوم وعادوا مصحوبين بأربعين شخصاً من سكان مدينة وهران كسنتين
لإخواتهم هناك .

فاستقبلهم الهادي استقبالا حسنا ، وعطاهم وصفح من جميع زلاتهم ، ثم
انتقل بأهله وحاشيته إلى مدينة وهران حيث اتخذها سكنا ومستقرا إلى أن وافاه
الله أجله ببلدة « صبيح » سنة (١٢١٣) وهو في طريقه إلى مدينة الجزائر ، وقد
دام حكمه عشرين سنة بايا مستقلا ، وسبعة أعوام خليفة مفوضا ، فرحم الله

(١) « ملوح سعد السودي أخبار وهران » مطبوعة بجرائدنا .

الباي عمداً الكبير رحمة واسعة ، وأسكنه جوار الشهداء الأبرار والصلحاء
الأخيار . . .^(١)

أعماله وإنجازاته

لم يسبح لنا الوقت باستقصاء جل ما صنعه هذا الباي البار من حسنات
شهدت بها أعداؤه في الدنيا وللدن ، ولعل ذلك كله بتفكيره لدراسة شخصيتها
لشخصية هذا الباي العظيم .

أما في هذه المقدمة ، فنستكتفي باختلاف أقل من القليل من تلك
الأعمال العظيمة .

(١) اعتناؤه بالفقراء والمساكين

طرد الجماعة باختران الحبوب وقت حصادها وتوزيعها على المحتاجين عند
الحاجة ، وكان يطبخو قصره بـ « مسكر » ومن إشارة الفقراء والجانسين
وكان يوزع بنفسه الألبسة على المرأة من الرعية ، لا سيما وقت الشتاء .

وكان يداوى بنفسه المرضى الفقراء وبمالهم ويتألم لوجعهم ، وكان يوزع
الأموال على الفقراء والطلبة والتأمين على خدمة المساجد في كل مناسبة عيد ،
أو موسم ، أو فرح ، وكان يمشي في كل سنة بهدلية تحية إلى الحرمين الشريفين
(مكة والمدينة) مصحوبة بمبدعي خدمة مسجد المدينة المنورة .

(ب) حرصه على الثقافة والتعليم

قد كان يمتنى بالثقافة ويعجب للتفنين ، لذلك بنى المدارس لطلبة ووفر لهم
المؤن ، وهيا لهم الوسائل التي تساعد على المضي في طلب العلم واكتناز المعرفة

(١) ولما الباي محمد الكبير « مدرسة خلق الشطاح » في مدينة وهران . ولما أوائل الاحتلال
أخذ جنود فرنسا مكان هذه المدرسة حاكماً يستعدون فيه . ولما ذهب لمس قبر محمد الكبير
وص ، ولم يعرف بالضبط مشيخته الكرم حتى الآن . وعرف هذه المدرسة — في
وهران الحاضر — بـ « جامع الباي »

جاء في «سند السوء» : «... وكان يحب الطلبة ، ولتلك بنى لهم المدرسين : الأولى : «المسكر» ، والثانية : «وهران» . حتى أنه لما دفت له الشكاية من أهل وهران بالطلبة ، وتكررت عليه ، أمر بإخراجهم من وهران لينتظر في ذلك ، فخرج الطلبة منها وأصرفوا بكلهم عنها ، وهو ينظر إليهم من محله ، وقله متعير في الأمر بكلمة ، فلم ير من حقهم ورأى النساء درجن على الأسطح ، وأعينهم شاخصات محوم ، أسفا عليهم ، وفي قم من أهل الصلاح ، فناء آخيه السيد قدور الكبير بن اسماعيل البعثاوي ، وقال له : يا سيدي لا يليق بك ولابنا طرد الطلبة ، الذين يدعون ربهم بالفداء والشئ ، ويتلون كتابه العزيز ، وإنما الألبق أن من فعل ذنبا يستحق به العقاب عوف ، ومن لا ، فلا . والذين اشتكوا لك بهم بأنهم أهل أخيات ، عليهم يحفظ أنفسهم وأهلهم من أدمع عليهم بغير إثبات . فقبل منه هذا الكلام ، وخرج به كثرأ وأمر بردهم لحلم ، فرجعوا بعد أن خرجوا منه ولما استقروا بمواضعهم ، واشتغلوا بمصالحهم ، ذهب إليهم على فرسه بشواشه ، متبخترا في سيره ، وحسن وصل إلى محلم ، دفع لهم مالا كثيرا زيادة بقصد التبرك بهم . وقال لهم : أيها الطلبة اشتغلوا بالقراءة وكنوا أنفسكم عن الأذابة ، فإني في المدينة من يحبكم ، إلا ثلاثة في الحية سراء : وهم : أنا ، وآخيه قدور بن اسماعيل البعثاوي ، والنساء » انتهى النص .

وكان يعظم العلماء ، فشيدهم الساجد ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والمدايا التي يفتخرون بها بمناسبة الأعياد والأفراح ، وما يمت إلى أمثال ذلك . ويكتفى دليلا ما ألقه علماء عصره من كتب غيبة في أخلاقه المرضية ، وسيرته المحمودة ، مثل كتاب «عجائب الأسفار» لحمد أبي راض المسكوي ،

(٢)

وكتب « النثر الجاني .. » لأحمد بن علي بن سحتون ؛ وكتاب « الرحلة القسرية في الأخبار الحمدية » لمصطفى بن عبد الله بن زوقة ، وغير ذلك من التأليف التي تدل على إسهانه المستمر في ألقها ويده الطولى على من صنفها . وكان يجمع العلماء ويشاورهم في الأمر وينزل عند رغبتهم .

أما الثراء ، فقد كان يمازهم أحسن الجزاء ويحزل لهم الطعام ، ولذا كر من ذلك على سبيل المثال ، أنه أهدى إلى الحاج أحمد القروى مائة محبوب ذهباً ، وأعطاه ألبسة تساوى خنسين محبوباً عندما مدحه بقصيدتين ، وأولاهما على تشييده للسجد الكبير بمدينة معسكر ، وثانيتهما بمناسبة فتحه مدينة الأشواط ، وأحوازها . وقد ذكر ابن هفائل كلنا القصيدتين برمتيهما في الرحلة التي نحن بصدد التقديم لها ، وكان يشجع الأدباء والكتاب بصفة عامة ، فقد منح أحد بن سحتون مائة دينار ذهباً عندما اختصر كتاب « الأغانى » لأبى فرج الأصبهاني . ومنحه أيضاً خنسين ديناراً ذهباً جزاء عمل قام به ، وهو انضاب أفاضلية من القواميس ، ومن أجل هذا كانت تتهاطل عليه اللدائح الشعرية والنثرية ، فيأتى أصحابها إليه خفاصاً ويرجعون بطاناً .

ومن يتصفح الكتب التي ألقت في سيرته ، يجدها زاخرة بالتصانيد الشعرية ، والأسجاع النثرية . ولم يكن محمد الكبير يتقبل الإنتاج الأدبي أو العلمى من المترين به إليه لحسب ؛ بل كان يبحث على هذا الإنتاج ، ويقترح مواضيع تناسب الظروف ، وتعود على الوطن وأهلها بانظير السيم ، فقد كاف - أثناء غزوة وهران - رئيس الطلبة مصطفى بن حيد الله أن يجمع له الأحاديث الواردة في الجهاد . ولم يترك هذا البار غرمة تقوته في نشر الثقافة وإنماء الأفكار . وكان يملك مكتبة ضخمة ، تحتوي على مختارات من شتى المخطوطات ،

وكان لا يكتفى بالخطوطة الواحدة في خراطة ، بل يأمر بنسخ عدة منها لتكثورها في تناول أهدى جميع المتقين ، وكان يئذل الأموال الطائلة في الخطوط النفيسة ، فيشتريها ويضعها في خزانة القصر أو يمجسها على طلبة المدارس وهذه المساجد ، وكان يبحث عن العلماء حينما كانوا ، ويقتنى آثار المتقين أنى بانوا . وكان مولما بالمطالعة وقت فراغه في شؤون الرعية ، وكان يقيها أديبا معلما على تاريخ العرب وأيامهم ، وكانت معرفته بالطب واسعة — على حد تعبير صاحب النثر الجاني — وكان مغرما بمسألة المساكين والفقراء اقتناء بالنبي صلى الله عليه وسلم — حينما كان يبالغ أصحابه رضى الله عنهم .

وكان يأمر بإحضار الأدوية بقصره لتوزيع على الفقراء والمساكين ، حينما تحت إشرافه .

(ج) اعتناؤه بالتشييد والبناء :

جدد بناء مدرستين ببلسان وأرجع اليها روثهما ، وأعاد لها حيسهما القديم ، وزاد عليه ، فأخذت المدرستان تستميدان قوتها العلمية من حيث الدراسات الدينية والأدبية بعدما قدناهما مدة طويلة .

وبنى في الجزائر العاصمة دارا جميلة وأنتهائهم سلمها لوكلائه ومعلميه هناك . وبنى في مستغانم قصرا جميلا ، كما شيد القصر الأنيق في مدينة « مسكر » — أيضا — وجعله منزلا جميلا جدا تحوط به حديقة غناء . وأنشأ السوق العتيق بـ « مسكر » ، وألحق الفندق الجديد — الذى بناه هو أيضا — بحبس الجامع الكبير ، ونقل الماء بالقنوات إلى المدينة الجديدة بـ « مسكر » قرية سيد علي بن محمد . وأنشأ مقبرة لشاهير شخصيات مسكر . ووسع جامع السوق بمسكر ، وزاد فيه رواقين من الأمام ، وجدد الجامع العتيق ، ووسع ساحته

وجلب اليه المياه ، وبني حصة أحواض للوضوء . واستبدل منبره بمنبر أحسن من ذي قبل . ثم شيد المسجد الذي يحمل اسمه : « جامع عماد الكبير » . وقد نال هذا المسجد إعجاباً كبيراً من الجمهور ، فراح الشراء يتفننون به ويرغمون بزخارف جماله وينشدون قصائدهم الرائعة فيه :

ألق العاصولك رحل ركائبي بالمسجد المنشى بام عسكر
الحكم الرشيد في شرفاته فقراء يحسن كاريات المظهر^(١)

وسفر في وسط المسجد (جامع عماد الكبير) بئراً وطولها ليفترق الماء المنب منها ويوزع على أحواض المسجد . ثم اشترى أرضاً نزل ينابيع الماء ثم أوجله في قنوات إلى أحواض المسجد الستة عشر . وبني مدرسة كبيرة وألحقها بذلك المسجد ، ثم حبس عدداً كبيراً من أسفار الكتب على طلبة تلك المدرسة وأساتذتها ، وأنشأ حماماً (حمام الأدم) حول ذلك المسجد وحبه على المدرسة والمسجد ، وزيادة على غبزة ودكاكين وأجنحة ، وكل مرافق الحياة التي كانت بحسولة لاحتياج الطلبة والأساتذة ، وجميع موظي المسجد والمدرسة . وكان موظفو ذلك المسجد يتألفون من خطيب للجمعة وإمام للصلوات الخمس وأربعة مؤذنين وسماع وأربعة أساتذة ومقدم للطلبة . وصنع مشهداً لسيدى أحمد بن يوسف ذفين مليانة ، كما صنع مشهداً آخر لسيدى محمد بن عودة (بن خدة) . وبني قناطر وجسوراً ، وعهد الطرقات ، وحصن أسوار معسكر . وبني في أوائل السنة التي فصح فيها وهران بالموضع الذي وقف فيه حصانه مسجداً للصلوات الخمس والجمعة ، ويسرف هذا المسجد عند سكان وهران ، « جامع بناصف » لكونه كان به وكلاء . ثم بني في السنة التي تليها (١٢٠٧ هـ)

(١) انظر القصيدة بأكملها في الرحلة التي نحن بصدد التقديم لها ، ص :

قلة « العرج الأحمر »^(١) . وبني مدرسة « بخنف الطاع » التي بها ضريحه . وشيد الجامع الأعظم المعروف بـ « جامع الياسا » ، لأنه أمر ببنائه حسن باشا ، كما تكفل بمصاريف بنائه أيضا .

مكانته بين رؤساء الدول

كانت علاقاته مع رؤساء الدول الإسلامية حسنة جدا ، فقد كان يمد يدهم الهدايا مزارا ، ويث من استنجد به لاسيا رؤساء الأقطار الثلاثة : مصر ، وتونس ، والمغرب . فقد لجأ إلى مدينة مسكر عبد الرحمن ولي العهد ابن مولاي محمد سلطان المغرب ، فرحب به محمد الكبير ، واحتفل بمقدمه . احتضنا عتيلا ، وبعد مدة مر بمدينة مسكر مولاي يزيد أخو عبد الرحمن السابق قاصدا بيت الله الحرام ، فاستقبله الباي محمد الكبير استقبالا حارا ، وجعل تحت تصرفه « قصر البستان » بما فيه ومن به . وبعد وفاة مولاي محمد خلفه ابنه يزيد المذكور فتسكر لسيرة أبيه وأخذ ينكل بمحاشيته ، فنه من قتل ومنهم من لقي ، ومن بين أولئك المنفيين إحدى الشخصيات المتيرة يقال لصاحبها ابن خدة الذي توجه ضوب مدينة مسكر حيث وجد من الباي محمد الكبير أكبر معين وأحسن رفيق ، فاستقبله استقبالا حسنا ووفر له

(١) جاء في « طالع سعد السعود » : « ثم هذا الباي .. أمره بالحام من الله تعالى في اليوم الحادي والعشرين من فتمه لوهرا ن — يهدم الأبراج الموالية لهم ، وهي : برج مرجاجو ، وبرج رأس الدين الكبير والعنبر ، وبرج الوزير ، وبرج فرناند ، وبرج كادوس وأشباهها من الأبراج الموالية لهم . . . »

وغرته بذلك وقع الضرر عن المسلمين ، حسا لمادة النصارى ، فإن الباي أيا التلازم لما فتحها أولا ترك الأبراج بلا هدم ، ولما رجع لما النصارى كان أول ضرر حصل للمسلمين من تلك الأبراج ، فلذلك أمر — رحمه الله — بهدمها .

كل ما يحتاج إليه من مؤونة وجوار وخدام وهم جرا . .

وقد اختلف - كذلك - أحد خلف باى تيطرى مع رعيته نائباً إلى مدينة مسكر فوجد في الباي الكبير رعيته المشردة، إذ استجاب له وهون عليه ، ثم عينه خليفة على ضواحي مسكر . وكذلك فر حسن باشا ابن باى قسنطينة إلى مدينة تلمسان فوقف الباي محمد الكبير بجانبه وأمانه في كل ما يحتاج إليه وتوسط لإحلاق عائلته به . ولما بهاتين إذا قلنا : بأن هذا الباي كان قبة للستينين وكعبة للمستجدين ، يأخذ بيد الضعفاء والساكنين ويقل عثرات من أطاح بهم الدهر التدار ، وكان حسن باشا ينظم هذا الباي ويعترف له بشجاعته وقبه وفطاته ، ويقدمه على جميع بايات القطر ، رغم حساد قد كانوا يشون به إلى الباشا . وكان بايا قسنطينة وتيطرى يجيران من أصدقائه الخالص . وكذلك كان باى تونس ، و سلطان المغرب في محبتها له وصداقتها سواء . ولعل ذلك ناتج عن كرمه السيل ، فقد حدثنا صاحب « الثغر الجاني » بأن هذا الباي كان يأتي إلى الجزائر مرة في كل ثلاث سنوات لمنع الضريبة (الدنوش) المجموعة على الإيالة القريبة ، وكان شمس مدينة الجزائر ينتظر بفارغ الصبر وقت قدوم هذا الباي الكريم . وكان مجموع ما به لبيت المال - دون الهدايا والتبرعات - مائة ألف سلطاني ذهب ، ومثلها يوزعها على الشعب . هذا زيادة على ما يدفعه من قطع الحيوانات ، وكية الجبوب والأقوات ، وعدد من العيد والحيول السومة ، التي يهنيها إلى ذوى الوظائف السامية ، وكان يسطى مالا كثيرا لخدام المساجد ، وبمجرد وصوله إلى مدينة الجزائر بعم الفرح جميع البلاد . وكان يوم دخوله إلى الجزائر يعد يوم عيد للفقراء والساكنين .

أوصافه الحسية وأخلاقه المعنوية

كان أسمر اللون ممتلئ الجسم ، مبرح القد ، لا بالويل ولا بالتصبر ، وكان شجاعاً نبلاً ، وفاصلاً كريماً مريح النضب والرضى ، كثير الحلم والدماء ، قوى المزم ، والمزيم ، محباً للسفر في أنحاء إبلاته ، وكان فارساً كبيراً ، لهذا كان كثيراً ما يدعى بترية الخيل الساق ، فكان يوجد بأصطبله أنواع مختلفة من الخيل ، وقد أمر بهذا الجهد في الاعتناء بها والحفاظ على سلسها ، وكله حياًداً ماهراً ، لذلك مجده مولداً بترية البزبان والصنوبر ، قال ابن عسلا في الرسالة « وقد اجتمع عنده ^(١) من الخيل الحسان المختلفة الأشكال والألوان ما لم يجتمع عند غيره من الملوك ، فكانت ترد عليه من كل مكان فيقبلها ويمارزها عليها الجزاء الكثير ، الذي أوجب جلبها ، فلما كثرت عنده صار يختار الدوام ويقدمها ويفضلها على غيرها » ^(٢) .

وقبل أن أضغ نقطة النهاية لهذا التقديم ، أود أن أنه القراء إلى شيء واحد طالما تناسبه مع أنه يجب الاعتناء به ، والتضحية بالوقت الثمين فيه البحث عنه ، ذلك هو التراث الوطني مهما كانت قيمته العلمية ، وكلها كان شكله ومبناه ، فللأعمار أشجار ، وللمروج أصول ، وللشعوب أجناس ، وللأجداد تاريخ ، وعلينا نحن الأحفاد إبرازة للبيان ليقى عبر الأجيال ، فإن كان خبراً اقتضاهوا الضغرتا به ، وإن كان شراً عرفنا أسبابه ، ولستنا بمسؤولين عنه .

محمد بن عبد الكريم

(١) عنده : الضمير يعود على الباي عمه الكبير .

(٢) رحلة الباي محمد إلى الجنوب ، ص .

ملاحظة هامة

النسخ المتبعة في تأويل الرسالة

أولاهما : مخطوطة خاصة توجد بمخزائنا ذات حجم صغير مربع ، خطها منرى صمى واضح لونه أسود ، أوراقها بيضاء ، في كل صفحة منها ٢١ سطراً . وهذه النسخة بمجولة الكاتب ، ويبدو أن ناسخها قد تصرف فيها ، ولم يراع (أمانة النص) . ولهذا تكثر فيها الالطاع الركيكة التي نقل في النسختين التاليتين — نسياً — ، وقد رمزنا لها بحرفي (نخ) أى نسخة خاصة .

ثانيتها : مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بالجزائر العاصمة) تحت رقم ١٦٤٣ . وهي — كذلك — ذات حجم مربع صغير ، خطها منرى صمى واضح جيد ، لونه أسود احمر ازرق ، أوراقها بيضاء مشوبة بنضرة ، في كل صفحة منها ١٢ سطراً . وهذه النسخة فرغ من قتلها محمد بن البشير « آقراى » التلمسانى في ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٠٢ هـ . وقد رمزنا لها بحرفي (نج) أى : نسخة جيدة .

ثالثتها : مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بالجزائر العاصمة) أيضاً رقم ١٦٤٤ ذات حجم مستطيل صغير ، خطها منرى صمى ردى ، في كل صفحة منها ٢١ سطراً . وهذه النسخة يبدو أنها بمجولة الكاتب ، رغم أنها اختست بنفس العبارة الى ختمت بها النسخة رقم ١٦٤٣ . وذلك لأنها يختلفان في شكل الخط اختلافاً كبيراً .

وعلى كل فإن إحدى النسختين ليست بخط محمد بن البشير « آقراى » قطعاً لا ريب فيه .

منهجنا في تحقيق الرسالة

كان اتجاهنا لتحقيق هذه الرسالة على النحو التالي :

- ١ - محافظتنا على النص ، فلم نغير كلمة نكت عن المعنى المراد ، ولم نبدل حرفاً قد وضعه القلم في موضعه دون أن نقب عليه في حاشية الرسالة .
- ٢ - شرحنا لبعض المردات القوية التي يستعمل في فهمها ، من حيث مدلول معنيها : العربي والمبني .
- ٣ - اعتناؤنا بالآيات الشعرية من حيث وزنها وقافيها والبعث عن منشديها
- ٤ - ارجاعنا كل آية من آي الذكر الحكيم إلى -سورتها- وتحديد رقمها .
- ٥ - ترتيبنا فهرس مراجع المقدمة والرسالة حسب الحروف الهجائية .
- ٦ - ترتيبنا فهرس الموضوعات الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ٧ - ترتيبنا فهرس الاعلام والالفاظ والكنى الواردة في المقدمة والرسالة .
- ٨ - ترتيبنا فهرس أسماء الأماكن والبلدان الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ٩ - تخريجنا لقوافي الآيات الشعرية الواردة في المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب الحروف الهجائية .
- ١٠ - تخريجنا لآي الذكر الحكيم الواردة في المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب السور .
- ١١ - ترتيبنا فهرس اقوال والأجناس الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ١٢ - ترتيبنا لأسماء الكتب الواردة في المقدمة والرسالة ، حسب الحروف الهجائية .
- ١٣ - تخريجنا للأشعار الأجمية والإقليمية الواردة في المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب الحروف الهجائية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

قال الشيخ الفقيه ، انحرير النية ، لسان الدولة ^(١) ، وفارس الجوزة ^(٢) .
 أبو العباس السيد أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هلال التلساني - كبير العلم
 وصحيح الأقوال ، رضي الله عنه .

الحديث « قال الإصباح ^(٣) ، وجاعل الليل - سكنا ^(٤) » ، ومخرج
 الأول ، ومصدر الأشباه لها وطنا ، ومفضل الإنسان بالنطق البالغ إلى كل منى .
 والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، أفضل من سائر ومن قطنا ^(٥) ، وعلى
 آله [وأصحابه ^(٦)] . ما حرك ربح الصبا فصنا .

(١) لسان الدولة : كاتبها . وقد كان - بالفعل - كاتباً لمحمد الكبير .

(٢) فارس الجوزة : خواص الممارك . وقد غاض عدة معارك إلى أن استشهد
 في أحدها .

(٣) قال الإصباح : شاق عمود الصبح عن ظلة الليل ، أو عن ياض النهار ،
 أو شاق ظلة الإصباح ، وهو التنبؤ الذي يليه . والإصباح - في الأصل -
 - مصدر أصبح إذا دخل في الصباح ، سمى به الصبح . وقرئ - أيضاً -
 بفتح على الجمع .

(٤) سكنا : تسكن فيه الخلق من الثعب . وجملة « قال الإصباح ، وجاعل سكنا »

اقتباس من آي الذكر الحكيم : سورة الانعام . الآية : ٩٦ .

(٥) هكذا - بألف تأنيه - في جميع النسخ .

(٦) الزيادة من فتح .

أما بعد ، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأكلها محاسن ^(١) وفخرا .
فهو أحد ما يطلق عليه علم التربية . كان أحق ^(٢) ما تنفق فيه الدخائر السنية .
وتصرف إليه المهرج الزكية ^(٣) . إذ به عرفت قدماء الأمم ، وبه حفظت محكم
أحلالهم والنسب . فاشتغلت به علماء كل قطر ، وصنفت فيه أدباء كل عصر ، حتى
ملئت منه الخزائن ، وكثرت [فيه] ^(٤) الرسائل والدواوين . فبعضهم أخذ
بطرف كفيه ^(٥) ، وآخر اغترف بأكمل يديه . وبعضهم ^(٦) أكثر من
المثل ، وشرب شرب عب وعلل . ومع ذلك ^(٧) ترى كل واحد يملح بضاعته
وعليها [ويفصل بذاكره وعليها] ^(٨) ، ولكل وجهة هو موليها .

[وقد] ^(٩) أردت أن أذكر منه نبذة ، أعلم بها [حضرة] ^(١٠) قلمع
البنفسين ، ومدوخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف والمجد ، وموجات

(١) نفع : ومحاسن .

(٢) نفع . ل : د : حقا .

(٣) نفع : الزكية .

(٤) الزيادة من نفع .

(٥) نفع . ل : د : كفه . بصيغة المفرد .

(٦) ل : د : وبعض .

(٧) الصب : شرب بلانفس . الملل : شرب بعد شرب بنفس . وفي نفع :

« وشرب شرب من عب وعلل » .

(٨) الزيادة من نفع .

(٩) الزيادة من قلنا : لأن السياق يقتضيها .

(١٠) الزيادة من نفع .

التكر والحد: محل الجلال والنظرة والجود، المخصوص بنصر الآراء والبنود^(١)،
 ذا الأيادي السمية، والمثلن المتظبية، والسياسة للديدة، [والتسم المدينة]^(٢)
 القى استند على تفضيله الاجماع، وجعل من قات اليمن والسدقي درجة الارتفاع .
 كرم المسترجع والثاني، الملحوظ برعاية الله^(٣) [السيد محمد باي ابن مولانا
 السيد عثمان باي]^(٤)، رحم الله السلف، وجعل البركة في انكلاف وخلف
 انكلاف — آمين — .^(٥)

مختصرا على ذكر خروجه الى جهة القبلة^(٦)، عام خمسة وتسعين ومائة
 وألف .^(٧) مقدرا — بالسوانح —^(٨) مراحل، ومبيننا منازل وساهله .
 أقول — ومن الله أرجو المأمول —

اعلم أنه لما اتفق نظر سيدنا المذكور — أطال الله بقاءه — وأيامه^(٩)، وجعل
 النصر دائما خلفه وأمامه —، في جهة القبلة [رأى] أنها ذات بلدان كثيرة،
 وأعراب راحلة ومقيمة [غزيرة]^(١٠) . إلا أنها لم تخلها أيدي^(١١) الساطنة .

(١) البنود : مفرد ما بند ، وهو العلم الكبير . والكلمة فارسية الأصل .

(٢) الزيادة من نسخ . (٣) نسخ : د : بمثابة .

(٤) نسخ . مر : د السيد محمد باي ، السيد مولانا عثمان باي .

(٥) نسخ : د آمين . فهو القوي الممين .

(٦) القبلة : الجنوب . (٧) الموافق لسنة (١٧٨٥ م) .

(٨) السوانح : هكذا في جميع النسخ . التي بين أيدينا ولم أتف على هذا الجمع ،

ولأنما ما أعرفه عن هو : ساعات وسباع وساع .

(٩) الزيادة من نسخ .

(١٠) الزيادة من نسخ (١١) نسخ : د ابدا .

ولم يكن منها لك مصلحة ولا منفعة [مينة] ^(١١)، كأنها أمة أجت ^(١٢) من أهلها، أو حرة شرت ^(١٣) من بطنها ^(١٤)، فشر لها من ساعد الجدد، عازما على رد ما بها من النار والصد. فجمع جموعه وقواده [وشر أعلامه] ^(١٥)، ولم يزد على أن كان جيشه حشمه ^(١٦) وخدامه .

فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول ^(١٧) بقومه وعسكره ، من « المسكر » التي هي محل وطنه ^(١٨) . فزل « واد الزلامطة » ^(١٩) ، وبينه وبين المسكرت ساعات ^(٢٠) ، ولما نزل آتاه ^(٢١) أهل « أئقاد » يطلبون منه التوجه لناحيتهم والذهاب إلى بلادهم ^(٢٢) وعينوا له غنيمة كثيرة يأخذها في تلك الجهة ^(٢٣) مع كونها قريبة المسافة ^(٢٤) ، حقيقة بالأمن والسلامة . فلم يرد ذلك عن مطلوبه ، ولم يصرفه عن مرغوبه ، وصرفهم بوجه جميل ^(٢٥) وأصبح مرغلا يوم الجمعة ، ونزل « واد العبد » . ومسافة ذلك خمس ساعات ^(٢٦)

-
- (١) الزيادة من نخ .
 (٢) لثرت : استصحت ، راعنت .
 (٣) الزيادة من نخ . والاعلام : الرابات التي كعدت على الرماح .
 (٤) حشمه : كل من ينضرب له ، وينضرب لهم ، من أقاربه ، وجيرانه ، وجمع رعيته .
 (٥) الموافق ليوم التاسع عشر من شهر جمادى سنة (١٧٨٥) .
 (٦) نخ : وطنه ومسكره .
 (٧) نخ : واد الزلامطة بغير آفات .
 (٨) مشيا على الأقدام — آنذاك — .
 (٩) في جميع النسخ : (أنوه) على لغة أكاوي الهرايث . والتصويب من قلنا .
 (١٠) نخ : واد بلادهم وضاحيتهم .
 (١١) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٢) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٣) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٤) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٥) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٦) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٧) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٨) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (١٩) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢٠) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢١) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢٢) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢٣) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢٤) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢٥) نخ : واد المسافة بالعلامة .
 (٢٦) نخ : واد المسافة بالعلامة .

وقد كان أعدى هذا الموضع شيئا كثيرا من الشعور ، بقصد هذا السفر (١) ،
فشرح في ترقته (٢) بقية يومه ذلك كله (٣) ، وأقام هناك بالنزد لجمال تنسيق
الدف ، فأخذ كل واحد على قدر دوابه (٤) ، ثم قسم عليهم الإبل يحملون (٥)
عليها زادهم وعطشهم . فحصل للناس قوة وإعانة بذلك . وارتحل يوم الأحد
ونزل « دير الكاف » ، وبينها (٦) من المسافة ست ساعات (٧) . وقد ورد
عليه هذا اليوم مشايخ الأعراب : كأولاد خليف والأحرار الشراقة وغيرهم (٨) .
وفي يوم الاثنين ترك الحلة متينة هناك وركب غازيا على « السور » ، فشى
ثمانى ساعات حتى نزل البيضاء (٩) . وهذا المنزل ذو آبار كثيرة ، وهي سهلة
التناول (١٠) ، منها ما يكون مأوها على قنطين ، ومنها ما يكون على أقل
لوا أكثر بقليل ، إلا أن بعضها أطيب من بعض .

فاستق الناس ، وعلقت دوابها (١١) ، وعندما نزل وردت عليه مكاتيب
[من] الجزائر ، [وهي] أجوبة عن مكاتيب (١٢) اليباني (١٣) ، فكان من

- (١) نخ : السفر الجديد .
(٢) نخ : ذلك كله من غير خلف .
(٣) نخ : ذلك كله من غير خلف .
(٤) نخ : ر : يحمل .
(٥) أي : بين ، واد العبد ، ودير الكاف .
(٦) نخ : ست ساعات بالتطاف .
(٧) نخ : وغيرهم بالانتخاب .
(٨) نخ : البيضاء في المجدور .
(٩) نخ : الجزائر أجوبة مكاتب ، والزيادة والتعريب
من قلنا ، لأن تمام المعنى متوقف عليهما .
(١٠) نخ : « دوابها وهم في الفياني » .
(١١) في جميع النسخ : مكاتب الجزائر أجوبة مكاتب ، والزيادة والتعريب
من قلنا ، لأن تمام المعنى متوقف عليهما .
(١٢) اليباني : اسم رتبة من رتب ضباط الأتراك وكانت البايات تبعث آخر
كل شهر قدراً معيناً من المال إلى باشا الجزائر ، فيدفعه إلى أصحاب هذه
الرتبة فسمى هذا القدر بمال « اليباني » .

جلة ما استفيد منها (١) أن بعض أهل دائرة سيدنا « الباشة » - نصره الله -
 بحث فرساً أنى من خناق الخليل ، حبة ودرغة في سيدنا (٢) ، كما أن الأحرار
 الثرابة قدموا عليه في ذلك (٣) الوقت بحيلهم التي اشترطها عليهم ، فقبلها منهم ،
 وأمرهم أن يأتوا له بمائة جمل ، كلها جيدة قوية على الحمل . فقبلوا ذلك ،
 وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم (٤) . وركب [مساء يوم الاثنين] (٥) وقت
 المغرب ، ومرتوا بموضع يسمى « الفبيحة » فزل قبة بعض [الليل] للاسراحة .
 ثم أتم بقية ليلته سائراً حتى أصبح في « عين سيدى حل » ، وتقدير هذه (٦)
 المسافة تسع ساعات (٧) ، فأقام يومه ذلك هناك إلى أن فات وقت العصر (٨)
 فركب وجد في السير خمس ساعات ، ونزل « عين سيدى سليمان » ينتظر الطوالع (٩)
 فأتوه بخير منزل القوم ، وأمه خلف الجبل (١٠) . فلما سألهم عن أهمهم : وجد
 غير الذين أرادهم ، فزجر الطوالع ووبخهم ، وقال لمشائخهم (١١) : إن لم تدلوني
 على ما ذكرت لكم ، فلا قبل منكم خيرهم . فشد ذلك جدت الطوالع في غارثها ،
 وتفرقت الخليل في نواحيها - حتى أتوه عند « خنيق » (١٢) الملح (١٣) .

-
- (١) في جميع النسخ : منهم ، والتصويب من قلنا .
 (٢) نخ : في سيدنا الفضل .
 (٣) نخ : في ملك . .
 (٤) نخ : وقامهم وهم في الاسراحة . . (٥) الزيادة من نخ . ر .
 (٦) نخ : هذا . .
 (٧) نخ : ساعات في المستعمل .
 (٨) نخ : العصر بالطالع . .
 (٩) الطوالع : الأصل في الطوالع الكواكب التي يتبادل بطولها السعد ، أو
 يشاء بطولها النحر ، ويراد بها - هنا - رواد الجيش ، وكشافته .
 (١٠) نخ : وخلف الجبل ما نخهم . . (١١) أى رؤسائهم .
 (١٢) نخ : عند خناق . . (١٣) الملح خيرهم . .

وبينه (١) وبين « عين سيدى على » تسع ساعات ، لأن من « عين سيدى على » إلى « عين سيدى سليمان » خمس ساعات . ومن « عين سيدى سليمان » إلى « خنيق » (٢) الملح « أربع سوانع » (٣) . وهذا الجبل كله من ملح ، إلا أن أكثره يظهر في رأى العين أخضر ، والبعض منه كشفت ترابه الأمطار وغشاه ، فصار ملحاً أبيض ما يكون . فإذا نظر العاقل هذا الجبل ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى (٤) ، التى لا يعجزها ممكن (٥) ، سبحانه مكون الأشياء بقدرته ومظهر الفجائِب بمحكته . وحيث (٦) أدركت الطوائع ، حسباً ذكرت في هذا الوضع ، وأتوه بالتغير اليقين ، صبح عنده شئ الفارة على تلك الجبال والأودية (٧) .

فلم يبق (٨) واد إلا وفيه طليعة ، ولا جبل إلا وعليه كنيبة (٩) ، وكانت منازل القوم بعضها في الوادى ، وأكثرها في الجبل . قصد « سيدنا » من كان في الجبل منهم (١٠) ، فقرأوا هارين بأهسهم (١١) طالبين النجاة لتدريتهم وعيالهم ، فأخفوا من أجسهم . إلا من سرقه الله (١٢) . وكذلك — أيضاً —

(١) نخ : « وبينهم » . (٢) نخ : « غناق » .

(٣) هكذا في جميع النسخ التى بين أيدينا ، ولم أطلع على هذا الجمع . وإنما ما عرفه هو : ساعات ، وسيلح ، وساح .

(٤) نخ : « تعالى المهيمن » . (٥) نخ : « الممكن » .

(٦) نخ : « وحين » . (٧) نخ : « والأودية بالتيقن » .

(٨) في جميع النسخ : « وادى » . والتصحيح من قلنا .

(٩) في جميع النسخ : « كتيب » . والتصويب من قلنا ، لأن الكتيب هو القربة المشدودة بالكوكا . وفى نخ : « كتيب سريمة » .

(١٠) نخ : « من كان منهم في الجبل » . (١١) نخ : « بأنفسهم دون ما لهم » .

(١٢) نخ : « الله القدير » .

الذين في الروادى ، قد أحاطت بهم الخليل ، فلم يمنع لا قليل ولا كثير . فنسقت
منهم الناس « غنية » كثيرة : من خيام ، وفرش وأمتة ^(١) . ثم جمع ما أخذ
لهم من الإبل ، وحسبها فوجدها نحو ألف جبل . وأما النعم فزهد فيها سيدنا ،
ثم انتهبها الناس بالذبيح حتى ترى الرجل الواحد يذبح الثلاثين والثلاث
والأربعة ^(٢) حتى استثنوا كلهم ونضل نحو أربعة آلاف ، أخذها سيدنا وبات
سكانه . وبسبب هذا الموضع « سلام » ، ^(٣) وبينه وبين « خندق الملح »
ثلاث ساعات ^(٤) ، ثم أصبح مرتعلا نحو « الخضراء » ، فوصل إليها في ستة
ساعات ، فجاوزها بنحو ^(٥) الليل ونزل على « تاويله » ^(٦) ، وهما مدينتان كل
واحدة لما يستأين كثيرة ، وماء غزير ومزارع ، إلا أن « تاويله » ^(٧) أكثر
عمارة وأوسع مزارع ^(٨) ، فلما نزل الليلة ، وحطت الناس أقدامها ، وضربت
خيامها وأخيبتها شرعوا في نهبها ^(٩) . أما « الخضراء » فلم يجعلوا فيها إلا ما
قل من الزرع والتبن ^(١٠) . وأما « تاويله » ^(١١) فقد وجد الناس ^(١٢) فيها من

- (١) نخ : « وأمتة كبيرة » . (٢) نخ : « والأربعة خلاف » .
(٣) نخ : وسلم ، بلام مفتوحة مشددة ، وقد اشتبهت بباء الجر بباء الكنية
على المازجم ، Gorguos ، فغلطوا في تعجيده لنص « بوسلام » انظر المجلة
الأفريقية لسنة (١٩٥٨ م) ، ص : ٥٩ .
(٤) نخ : « ثلاث ساعات بالمعلم » . (٥) نخ : « في نحو » .
(٦) نخ : « تاويله » . (٧) نخ : « تاويله » .
(٨) نخ : « . . . مزارع من الخضراء تاويله » .
(٩) « في نهبها » رجاله جوارها .
(١٠) نخ : « والتبن التراب » . (١١) نخ : « تاويله » .
(١٢) كلمة : « بعض » ساقطة من نخ .

التح والشعر وغيرها من الحبوب ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى . وقد وجدوا فيها [بعض] ^(١) الامتعة ، وأصاب [فيها] ^(٢) بعض الناس بيتا علواً من الزمان . وهذا دليل على كثرتهم بهذا البلد ، لأنه ليس وقت إبانته ^(٣) . وأما أهلها من الرجال والنساء فقدموا بقدومه قبل ورودهم عليهم ، فهربوا بأنفسهم وفردانهم ^(٤) وتفرقوا في رؤوس الجبال وبطون الأودية ، ولم يأخذوا من أنفسهم إلا ما خف حمله ، وكثر سومه ، وتركوا ما عدا ذلك ^(٥) ، فصار كله غلبة الجند . فأقام بها يرمين والناس لم يفتروا من قتل حوائجها وزرعها . ثم لم يحل لها نزول « الخليل » ^(٦) وهذا المنزل فيه ثلاث عيون ، كل عين منها في غاية ما يكون ، في صفاء الماء وقوته ، واتساع الأرض التي تسقى به ^(٧) . ثم تلك العيون مفترقة في أماكن يتايمسها ^(٨) ، وحيث انفصلت عن أماكنها ، انحدرت من بلادها ، اجتمعت فوق المضيق ، الذي يقال له : « رأس واد شلف » . ومنه إلى أسفل يسمى « سيقان » ^(٩) وقد أخبرني من أتى به : أنه « الشلف » ^(١٠) على التحقيق . وقد وصف لي طريقته ، وسمى لي جميع البلاد التي يمر عليها ، حتى أوصله إلى قرب مليانة ^(١١) وكان هذا الرجل من أهل

(١) الزيادة من نخ . (٢) نخ : « إبانته بالبيان » .

(٣) نخ : وفردانهم ، وما إليهم .

(٤) نخ : ما عدا ذلك بنفسها .

(٥) الخليل : — بفتح الخاء وفتح الياء المتشدة كما ضبط في نخ .

(٦) نخ : تسقى به لندته .

(٧) نخ : يتابعها وبلادها .

(٨) نخ : « سيقان » .

(٩) نخ : « الشلف » .

(١٠) مليانة : هي تالة الثلاث : الجزائر ، والمدينة ومليانة . وقد أسس جميعها : بلسكين ، ابن زيري ، بن مناد ، الصنهاجي . بعد الستين من القرن الرابع الهجري .

هذا البلد ، بل هذا الخير شائع عند أهل تلك البلاد ^(١) . فلا ينكره أحد منهم ^(٢) .
وكانت المسافة بينه وبين « ناورله » ^(٣) ست ساعات نيات الناس على هناك ^(٤) .
وبالند طارت القوم في غيبش ^(٥) الظلام إلى مدينة «ترب » الخير « ينك
لها « تادمانه » . فهرب أهلها ، وأخذوا ما قدروا على حمله وعاجلهم ^(٦) من
الباق ^(٧) . فأخذوا ما وجدوا فيها من قبح وشبير ، وغير ذلك . وهذا ما كلفه
في ذلك اليوم .

ذكر على (المحلة) (٨)

سبق لنا أنه تركها في « دير الكاف » ، وذهب غازيا .
اعلم أنه لما أصبح يوم الاثنين عازما على ما أراد ، فاصدا لما يسكل مراده .
وكان مصاحبا له في هذه المحلة قرعة ناظره ، وعضد ساعده ^(٩) ، صاحب القصر
والأمتان ، جامع شتات الفضل والإحسان ، وارث مجدة : ابنه السيد عيان ،
فأمره أن يقوم بأمر « المحلة » ، ويسير بها رائدا من غير عجلة ^(١٠) . فأقام
يومه ذاك ^(١١) ، وبالند ارتحل ، ونزل « السيد عبد الرحمن » ^(١٢) . ومنه نزل

-
- (١) نخ : « البلد » .
(٢) نخ : « منهم » .
(٣) نخ : « ناورله » .
(٤) نخ : « هناك » .
(٥) نخ : « غيبش » ، وكلا اللفظتين متعاما ظله آخر الليل .
(٦) نخ : « عاجلهم » .
(٧) نخ : « الباقي » .
(٨) نخ : « ذكر على المحلة غازيا » .
(٩) نخ : « ... ساعده وشاظره » .
(١٠) نخ : « بنير المحلة » .
(١١) (١٢) أي يوم الاثنين .
(١٢) اسم مكان ، سمى باسم شخص صالح يقال له « السيد عبد الرحمن » .
وفي نخ : « السيد عبد الرحمن بالمل » .

عبد الرحمن. وفي نخ: السيد عبد الرحمن بالمهل. > ومنه نزل (القطيفة) وأقام بها لكثرة الأمطار، وسدّة الوحل، وارتحل من القطيفة، ومر بالبيضاء > نخ: بالبيضاء وبها لم ينزلوا. > وأمر الناس أن يسقوا دوابهم، وبأخذوا الماء لأنفسهم، ففعلوا. ثم جاوزها ونزل بمكان قريب منها > نخ: منها بغير الاختلاف. > ثم ارتحل ونزل (الحليات). وبالغد ارتحل فنزل (مركابه) > نخ: >. ونزل بمركابه. > ثم ارتحل ونزل الحليات. على يمين (وادي سيقاق)، بنسبة الذهاب بجهة القبلة > نخ: القبلة باتفاق. > ولما غشيهم الليل، طمع بعض أعراب تلك الجهة في سرقة المحلة، فاختلف جماعة منهم، وصاروا يحتالون على كيفية الوصول إلى الإبل، أو غيرها من دواب المحلة > الزيادة من نخ. > فإذا بعض الترك كشفوهم > في نخ. نر: كشفهم. > وخربوهم فأصابوا واحداً (منهم) > الزيادة من نخ. > فقتلوه وقطعوا رأسه > نخ: وقطعوا رأسه لما استنكرهم. > وأنوا به لصاحب (المحلة): السيد عثمان ابن سيدنا، فأعطاهم دراهم وشكرهم. ثم ارتحل منه ونزل (الخير)، واجتمعت المحلتان، والتقت الفرقتان. فكان يوم عيد، وعند كل واحد فرح جديد.

واشتدّ البرد في هذه الدار > نخ: الدار بالفحو. > ونزل من الثلج ما كانت الناس تظن أن مثل ذلك لا يقع في الصحو، لتسويتهم بين سهلها وجبالها > أي أن الناس كانوا يظنون أن الصحو في السهول مثله في قمم الجبال. > مع أن هذا الجبل ذو > في جميع النسخ: ذا. والتصويب من قلمنا. > برّ شديد > نخ: شديد مفرق للرفقات. > وهو مرتفع جداً، ومياهه كثيرة، فكان له شبه بجبال النل، بل هو أشدّ برداً منها في بعض الأوقات. ولما رآه > الضمير يعود على الثلج، والرائي هو محمد الكبير. وفي نخ: رأوه بصيغة الجمع. > قد كثر، ولم ينقطع خاف منه على الإبل، فارتحلّ وسار أربع ساعات ونزل (قصر أوفل) > هكذا في نج، وبر. ولعله قصر أفلو وفي نخ: واد الإبل الحربية. > فتركه ذات الشمال، ونزل جهته > نخ: جهته. > الغربية، وعندما نزلت المحلة قصدت القوم > القوم: الفرسان: الخبال. > هذا القصر، لأجل الشعير والقمح وغير

ذلك >نخ: وغير ذلك ليأخذ كل ما له ناب. < فوجدوا أهله هربوا منه ولم يتركوا شيئاً طاهراً،
فبحثوا في أماكنه الخفية، فبعضهم أصاب، والبعض حاب. وفي هذه الدار >أي: قصر آفلو،
أوفل. < قدمت عليه طوائف العرب مثل (أولاد صالح) و(أولاد يعقوب) (القبالة، و) (أولاد يعقوب)
الغرامة >نخ: الغابة. < وغيرهم. وكلهم أنوا ب (القادة) >القادة: قوادهم ورؤساؤهم، والكلمة
أقليمية النزعة. وفي نخ: بالفادات. < طالبين الأمان لأنفسهم متحيلين لما فرض عليهم >نخ:
عليهم لنيل خيرهم. < فجعل على كل قبيلة منهم شيئاً معلوماً من الأبل والخيول وأمنهم،
وكسأهم، ورفع عنهم ما هم فيه من الخوف والوبل.

ففرحوا بالأمان فرحاً شديداً، وذهبوا مبشرين أهلهم بعافية وطنهم وعمارتهم ومخيرينهم
بسطوة الملك >نخ: عليهم لنيل خيرهم. < وكرامته. وبقي بهذا المنزل يومين وارتحل، فمشى
ست ساعات ونزل (وآرن) >بهذا اللفظ في نخ، ونر. وفي نخ: وبالروان نر. وقد شك المترجم

ست ساعات وزل • وارثن • ^(١) على حاشية الوردى ^(٢) من الجهة الشرقية .
ومن الجهة الغربية يصد إلى القعدة ^(٣) ، التي يضرب بها المثل في الصوبة المحيطة
بها سبعة أدوار ^(٤) ، فذلك اشتهرت بهذا الاسم ^(٥) . فتجد البعض يسميها
« سبعة أدوار » ، والبعض يسميها : « القعدة » . فالقعدة عندهم علم بالثبته على
الموضع الخاص في طرف « جبل راشد » ^(٦) . وقد انحاز إلى هذه القعدة
جميع من في هذه الجهة من الأعراب وامتلأت منهم الأودية ، والجبال والشباب ،
ظانين أنها تنبئهم ، وتمنهم من يطعم فيه وتمنيه ، فاعتمد عليها ، وفوض أمره
إليها ، حتى أنه رقد بالنوم ، ولم يشعر بما تصنع قذرة الحى اليوم . وعند المساء
أمر مناديه ^(٧) أن ينادى بين أجناده : ألا أنه إذا طلع القمر ، فليتها الراكب
والسكرك ^(٨) . ولما أصبح الله بخير الصباح ، وركب سيدنا ، وقصد « سبعة
أدوار » بخيله ورجله ، و « لكل امرئ منهم — يومئذ — شأن يغنيه » ^(٩)
فلما أحسنت به الأعراب التي في القعدة تحمّلوا في جبل وعر ، وواد حصين ، بحيث

-
- (١) بهذا اللفظ في نج • وثر • وفي نخ : « وبالروان نزل » . وقد شك
المترجم في تركيب كلا في المثلين ، وتحقيق من دخول تصحيف عليهما .
أنظر : « المجلة الأفريقية » لسنة (١٨٥٨ م) ص : ٥٩ .
- (٢) في جميع النسخ : « الواد » ، والتصويب من قلنا .
- (٣) نج • ثر : « قصر » . (٤) نخ : « أدوار كالمجموعة » .
- (٥) نخ : « الاسم في الرخاء والشدّة » .
- (٦) نخ : « راشد المرتفع » .
- (٧) نخ : « مناديه » .
- (٨) يقصد به : الراكب ، الفرسان ، وبه « السكرك » الجنود المشاة .
- (٩) هذا اقتباس من آى الذكر الحكيم سورة : « عبس » . الآية : ٣٧ .

ان الرأى إذا تأمله ونحقق حسه ووعره ، علم أنه لا نظير له ^(١) . فلم يذبوا
إلا قليلا حتى أحاطت بهم القوم ^(٢) من كل جهة ^(٣) ، وجعلت تشتت أناسهم ،
ونهب خيامهم ، وأمتنتهم حتى أخذوا ^(٤) من آخرهم ، ثم وصل اليهم الاسكرو
وصار يثبطهم من تحت الأحجار ، ويخرجهم من الفيران ، حتى أنه لم يبق
منهم واحد إلا هو واحد من ثلاثة ^(٥) : أما قتيل ، أو أسير ، أو مقطوع
الأذن حسير ^(٦) ، بعد أن كان فريد دهره ، وواحد عصره . وقد نبه سيدنا على
أن المرأة لا يتعرض لها ^(٧) ، ولا يأخذ أحد شيئا من لباسها ، صونا لحرمها
وتزويها عن حقارتها ^(٨) . فلما رأى ما حل بهم أدركته الشفقة عليهم . فأمر
باطلاق الشيوخ والصبيان ، وترك ^(٩) المسكحول ، والشبان والأغنياء ، حتى
أوصلهم إلى الحلة ، ولبثوا على حالهم تلك الليلة ، وعند الصباح جمعهم وأعطى
لكل من جاءه واحد منهم [العدد] ^(١٠) الذى سمى له ، ثم أطلقهم ، من أمته
عليهم ، راجيا أجر ذلك ^(١١) ، ورافيا في ثواب ما هناك ^(١٢) . وكان أكثر ما
أدركته الرقة حين رأى شيخا كبير السن من ذرية بعض الصالحين أنه لا يقدر
على المشى ، أمر خداه أن يحمله ، وكساه وأعطاه دراهم ^(١٣) ، وبالنسبة أعطاه

-
- (١) نبع : لا نظير له فى التحقيق .
(٢) نبع : جهة فى محاصرم .
(٣) نبع : من ثلاث بالبيان .
(٤) نبع : لها فى حقارتها .
(٥) نبع : حقاقتها : يريد بمقارنتها - هنا - ضعفها وعدم استعدادها لمقاومة الشدائد .
(٦) وترك : أى تركهم قيد الأسر . (١٠) الزيادة من نبع : ترك .
(٧) أى : أجر ذلك المني . (١٢) أى : فى الثواب الآخرة .
(٨) : دراهم ، ولم يكن فيه من الواحدين .

فرسا ، وزاد له كسوة أخرى ، ودرهم ، وردة لأهله مكرما^(١) . وهذا الرجل أصله من « النيشة » يدعى « السيد »^(٢) الموهوب . وأما النعم والبقر ، فلم يأخذ شيئا من ذلك ، لأنه كان يفضل [بها] ^(٣) على خدامه ، بل قال لهم : من أخذ شيئا فهو له^(٤) وأمر أن يعلن بذلك المنادى ، حتى صار شامسا ، ذاتما عند كل حاضر وبادى^(٥) . فعمل الناس يقسمون القليل والجليل ، ويركضون في كل ساعد وزيل . وحصل لهم سرور ونعمة ، وتباعدت عنهم كل قافة حقة . فلا تسمع إلا هذا صائد يطرد ، وهذا صائح يهرب^(٦) . والكل ملئون بحياة سيدنا ومبتهلون بالدعاء بنصره ، وتقليد الخلافة في نسله وفرعه^(٧) . ثم أن بعض العرب من أهل « هذه القعدة » ممن أسنده^(٨) الله حين صعد سيدنا إليها^(٩) تمسكوا^(١٠) بالمشايخ الذين معه ، واعتذروا بضعفهم ، وقلة معرفتهم بالملوك . فصالحوه على أن يسطوا له أربعمائة رأس من البقر ، ومائة حمل من

(١) نبح : مكرما في حالة المصوب .

(٢) نبح : بالسيد .

(٣) نبح : دله . نبح : نر : والتصويب من قلنا .

(٤) نبح : دله وصمم في كلامه .

(٥) أي : حضري ، ويدري .

(٦) يهرب : هكذا في جميع النسخ . ولعله : يزد ، لأن البردة لردة سوء

الخلق . لا هذا لا يتناسب مع سياق كلام المؤلف .

(٧) نبح : دله وطرعه باشره .

(٨) في جميع النسخ : دسعد . . . والتصويب من قلنا . لأن سعد

لا يتعدى .

(٩) نبح : د إليها فسلوك .

(١٠) نبح . نر : د فتسكوا .

الشعر^(١) . وأما الخليل لم يكن عندي^(٢) تحقيق في كم ما دفعوا له^(٣) فحين يفتنوا حزمه^(٤) ورأوا جده وقوله ، علوا أن التراخي لا يمكن شمله^(٥) ، ولا ينفع التأني في خدمته - فذهبوا مسرعين بجميع ما أمرهم به^(٦) ، فلم تطن أخصهم^(٧) حتى أتوا بجميع ذلك ، ورجعوا بين خوف ورجا ، طامعين أن يعمل الله لهم بطاعتهم فرجا . ثم أتمل عنهم ، وجاوز « واد مرة » في ثلاث ساعات^(٨) .

وجد في سيره حق نزل « الدبداب » على ست ساعات ونصف . وهذا الموضع هو رأس « واد القصب »^(٩) . وكما يسمى « الدبداب » يقال له : أبو شكوة أيضاً . « والسكرط » في جهته الشرقية على نحو الميلين ، وقوله « حاس الحار » على نحو ثلاثة أميال^(١٠) . والجبل الذي في غلبته يسمى « الأخضر » وفي طرف « الأخضر » من جهة الشرق قرية ، تسمى : « الشارف » ، وحيث نزل هذا الموضع ذكرت له مدينة ، وهذه المدينة تسمى : « زينة »^(١١) ، قرية من « الدبداب » بنحو أربعة سوانع^(١٢) . وهي لبعض الأعراب الذين لا حكم

-
- (١) نسخ : « حمل شعيد » .
 (٢) نسخ : « فيكم فادفعوا له بالتحريم » .
 (٣) نسخ : « حزمه وقوله » .
 (٤) نسخ : « في شقلته » ، وبعبارة النص لم تزد تمام المعنى .
 (٥) نسخ : « به في ذلك » .
 (٦) نسخ : « في ثلاث ساعات بلا عطف » .
 (٧) نسخ : « واد القصب عضا » .
 (٨) نسخ : « ثلاث في المتقارب » .
 (٩) نسخ : « ذكرت له مدينة تسمى الزينة في السانع » .
 (١٠) نسخ : « هكذا في جميع النسخ التي بين أيدينا والصواب ساعات » .
 (١١) نسخ : « أو سباع ، أو سابع » .

عليهم لأحد . وأعلم أصحاب قوة ، وعدة ، ومرة ^(١) . وقد ذكروا له أن باي
(تيطرى) نزل عليها فطرده ^(٢) ، وقتلوا له رجلين ، وذهب مضموما
مدحورا .

فلما سمع كلامهم على هذا الوجه اشتد حرصه عليها ، وأراد النزول بقرتها ،
فراوده بعض من كان معه من المشايخ أن لا يذهب إليها ، وأن لا يكشفه
حريمها ^(٣) . ووصفها له بالحقارة وعدم الطاقة . وقال له : ليس فيهم قدرة على
على ملاقاتك ^(٤) ، وهم مشتغلون في خدمتك ، وأنهم يحممون خمسة وعشرين
مملوكا ويقدمون بهم ^(٥) لحضرتك . فأبى عن خدمتهم ، ورغب عن طاعتهم ،
ولم يرد إلا حقوقهم ^(٦) لجسارتهم على (الباي لار) ، وأخذته الأفة عليهم ،
ولكن استصغروا في حينه . فقلت حته أن يتولى قتالهم بنفسه ^(٧) ، فأمر
خليفته ومثولى خدمته ، [من له قدمه] ^(٨) في الفاخر السيد محمد بن
عبد الله ^(٩) أن يذهب إليها ، ويرجف بخيله وركابه عليها ، وحيث
سمع كلامه نهض إليها ، وأخذ معه بعض المسكر ^(١٠) . فلما رآه ^(١١)

(١) نبح : وقوة ، وعدة ، وذو عدة .

(٢) نبح : وفطرده عقورا .

(٣) نبح : وحريمها بحرهما . (٤) نبح : وملاقاتك الشاقة .

(٥) في جميع النسخ . وبها ، والتصويب من قلنا .

(٦) نبح : وحقوقهم باشتار . (٧) نبح : وبفسه فيما لديه .

(٨) الزيادة من نبح . (٩) نبح : ومحمد بن عبد الله من المشاهير .

(١٠) نبح : والمسكر فنزول عليها .

(١١) في جميع النسخ : وراوه . على لغة أكلوني البراغيث . والتصحيح
من قلنا .

أهل تلك القرية ^(١) عدوا [أنهم] ^(٢) لا قدرة لهم ولا ملأفة للملاقاة، فخرجوا منها بأجمعهم، ولم يأخذوا شيئاً من أمتهم وقوتهم ^(٣)، وتركوها «خاوية على عروشها» ^(٤)، «أهيرة في يد عقوقها» ^(٥) فدخلها من غير حصار عليها ولا قتال ^(٦) فانتهبت جميع ما فيها من القماش و«الترائر» ^(٧) والسفن وغير ذلك مما نرغب فيه النفوس. وقد وجد فيها من القمح والشعير ^(٨) ما لا يحصى عدده إلا أني تعالى، لحملت منه الناس شيئاً كثيراً ^(٩) وأكثروا رغبت في الشعير دون القمح. فتراهم يمتنعون المطامير، فإن وجدوه شيئاً حملوا منه ما قدروا عليه، وإن وجدوه قحاً يأخذوا منه شيئاً ^(١٠)، وكر ^(١١) راجعاً لحلته، ظافراً ^(١٢) بحاجته، فأقام ^(١٣) في التند في هذه الدار ^(١٤). وقد كان ورد عليه أهل تاجوت ^(١٥) وأهل عين ماضي ^(١٦) بسلاتهم وكبرائهم، يريدون خدمته كآحاد ^(١٧).

- (١) بخ : القرية وكثرة جيشه وطاقاته . . (٢) في بخ : ر : «أه» .
 (٣) بخ : «وقوتهم وسلمهم» .
 (٤) اقتباس من آي الذكر الحكيم ، سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .
 (٥) بخ : «عقوقها بفروشا» .
 (٦) بخ : «ولا قتال يسوس» .
 (٧) الترائر : مفرد ما حرارة بكر أوله ، وهي الجمالة التي تلصق من صوف ، أو وبر ، أو شعر ، بقصد جعلها ، أو حية الحبوب .
 (٨) بخ : «والشعير وما لا به يبالا» .
 (٩) بخ : «كثيرا بالبر والقرح» .
 (١٠) بخ : «شيئا ولا يرجعوا إليه» .
 (١١) الضمير في ذكر ، يعود على محمد بن عبد الله .
 (١٢) بخ : «ظافرا» ، يضاد غير مشالة .
 (١٣) الضمير من «أقام» ، يعود على أبيي محمد الكبير .
 (١٤) المراد به الدار = هنا = «الدبداب» . (١٥) بخ : «تاو دموت» .
 (١٦) بخ : «عين ماضي» ، بالاشتقاق .
 (١٧) في جميع النسخ : «كآحاد» . والنصوب من قلنا .

« رعية » ، ولزمون أنفسهم بشئ . يرتضاه ^(١) ، حتى تأتي على جميعهم النية .
 تقسط لكل واحدة منهما قسطا معتبرا ^(٢) يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر .
 وجعل لهم شيئا معلوما - غير الذي ألزموا على الأبد - ^(٣) يؤدونه ^(٤) إليه في
 هذه السنة خاصة فقبلوا ذلك كله ، وشرعوا من حينهم في دفعه ^(٥) ، فكانوا ^(٦)
 يدفعون المدام ، والصباغة ^(٧) ، والثياب ، والليل . ثم ارتحل من « الدباب »
 ونزل « الجواب » ^(٨) قبال « تاجوت » ^(٩) . وساعة هذه الرحلة ثلاث
 ساعات ^(١٠) وبهذه الدار هيون كثيرة ، وماؤها عذب سائح للشاربين ^(١١) ، ونحوه
 مزارع تسقى منه ، ويته وين « تاجوت » ^(١٢) نحو ثلاثة أميال . وفي هذه الدار
 دفع ^(١٣) أهل « تاجوت » ^(١٤) جميع فطيمتهم التي عملوها ، وشرع ^(١٥) أهل
 « عين ماضي » في الدفع ^(١٦) ، ثم ارتحل ونزل « أم الضلوع » على ثلاث ساعات

(١) نغ : « بما يرتضاه » . (٢) نغ : « القسط المعتمد » .

(٣) نغ : « على الأبد ليس مقاصة » .

(٤) نغ : « يدفعه » . نغ : « يؤدونه » . والتصويب من قلنا .

(٥) نغ : « في دفعه في النهار والليل » . (٦) نغ : « فكانه » .

(٧) الصباغة الحلى من الذهب والفضة . والكلمة عامية ؛ لأن « الصباغة »
 حرفة الصانع .

(٨) نغ : « الجواب » . (٩) نغ : « تاجوت » .

(١٠) نغ : « ساعات في الثبوت » . (١١) نغ : « للشاربين مدة الأجيال » .

(١٢) نغ : « تاجوت » .

(١٣) في جميع النسخ : « دفعوا » . والتصويب من قلنا .

(١٤) نغ : « تاجوت » .

(١٥) في جميع النسخ : « وشرعوا » . والتصويب من قلنا .

(١٦) نغ : « في الدفع لفطيمة التي عملوها » .

من «المواجب» - وعندما وصل المنزل قدمت مشايخ «بنى الأعزاط»^(١) وعلازم ، وأبائهم (كتاب)^(٢) صحيح البخارى - رضى الله عنه - طالبين. الأمان على أنفسهم وأهلهم^(٣) ، ومذهنون بالطاعة ، قائلون أن يسكنوا رعية على أن يسطروا مائة خادم وخمسة آلاف ساطاني ، ومائة ثوب وأوبية أفراس . قلنا رأى حرصهم على هذا الأمر وتحملهم ورضام بذلك القدر قال لهم : أن أتيتم بما ذكرتم ، ووفيتم بما وعدتم فلكم منى الأمان - رأى أمان - ، ثم كسبهم كلهم ، كما كانت عادته مع غيرهم ، وزاد لكبيرهم «منطقة»^(٤) فائقة ، و«حلة» راقية . وطلبوا منه أن يقيم في هذا الموضع^(٥) حتى يدفعوا له جميع ما التزموه . وانصرفوا ، وبث معهم خدامه^(٦) «الخازنية» خلاص ذلك على المادة للملومة في الرعية . فلما وصلوا لبلادهم ، وتفكر سيدنا في أمرهم فوجد أنه لم يعمل عليهم شيئا معلوما ، يؤدونه في كل عام ، ويأخذ عليهم عهدا في ذلك^(٧) ، مع أن هذا هو المقصود بالذات . وأما غيره - ولو كان كثيرا في شدة - فهو تابع ، غير مقصود . فكشب لهم كتابا يلزمهم بما فيه وأنه هو المراد^(٨) . وبقي وبث به مع بعض «قيادة»^(٩) ، فطرقهم به ليلا ،^٨ إلا أنه وجد نياتهم قد تحوكت وطويأتهم قد فسدت ، فاجتمعوا عليه لقراءة

-
- (١) نخ : «بنى الأعزاط لنيل المراتب» .
 (٢) الزيادة من نخ . نر . نخ : وأهلهم لمن النهاس .
 (٣) منطقة : - بكسر الميم ورفع الطاء - ثوب يتمنطق به .
 (٤) نخ : «الموضع الذى فيه بالعدد تسكنوا» .
 (٥) نخ : «خدامهم» . نخ : «في ذلك الالتزام» .
 (٦) نخ : «المراد بالمقصود» . (٩) «قيادة» : نواذه والكلمة أقلبية عامة

الكتاب ، ويق حامله وأصحابه منتظرين ^(١) ما به من الجواب . فلما فتحوا
أقفوس مخاضا لترضهم ، فجاءوا سبياً لتقض عهدهم وسجلكرم . وقالوا — كلمهم —
هيئات ، هيئات ، فلا يسكون شيء من هذا مدة الحياة ^(٢) .

ثم أمروا « المخازنية » بالارتحال عنهم سائلين وإلا يذهبون ^(٣) ناديين .
واشتغلوا بمسألة الأسوار ، ويقولون لبعضهم بعضاً ^(٤) : الحصار الحصار ،
وجعلوا يشغلون من حولهم من الأعراب والقرى . « وترام سكارى ، ومأم
بسكارى » ^(٥) فجاءتهم الأجناد حتى ظنوا أنه لا يصلهم أحد إلى البلاد .
ورتبوا أحيان البلاد ، أهل النجدة والباس ^(٦) في الأماكن التي يخاف منها ^(٧)
وجعلوا الزمات ^(٨) في الأبراج العالية المشرقة على جميع البقاع . وغلقت أبواب
المدينة بالبنان ^(٩) . ربما غلقوا السكك ^(١٠) وأبواب الدور بالبنان كذلك ،
ويفتحون طاقات يدخلون منها ويخرجون ^(١١) .

والحاصل أنه لم يسبق لهم باب من أبواب الخوف إلا وغلّفوه ؛ ولا أسر

-
- (١) يخ : « سائلة منتظرا » .
(٢) في جميع النسخ « الحياة » . والتصويب من قلنا .
(٣) يخ : « يذهبون » .
(٤) يخ : « بعض » .
(٥) هذا اقتباس من آي الذكر الحكيم ، سورة الحج ، الآية : (٢) .
(٦) يخ : « ر » : « والناس » :
(٧) يخ : « منها هلاك النفس » .
(٨) في جميع النسخ « الرماح » . والتصويب من قلنا .
(٩) يخ : « بالبنان الشديد الانعلاج » .
(١٠) السكك : الآرقة .
(١١) يخ : « ويخرجون لذلك » .

نافع لهم إلا واستدوه ، والواضع الرمية جددوها ، والجديدة حصنوها وشيدوها ، مع أن هذه المدينة عظيمة في قسما ، محمية بأسوارها ورجالها . ولذلك لم يطلع أحد ممن كان قبله فيها ^(١) . ولا رتبوا كل صف ^(٢) على حدة ، وحرضوه على مدعورته ، بلغ ذلك كله سيدنا — أيده الله — وصح عنده خبرهم . وشاع في الناس محادثهم ^(٣) ، أو نحل فوكل عليهم ^(٤) ، والسافة بينهم وبين « أم الضلوع » ثلاث ساعات ، فمتدما وصل إلى منزل « الحلة » ^(٥) ، وذلك بقرب المدينة بنحو الميل . من الجهة الغربية ، ترك الناس يتنولون أخبيتهم وتقدم ينظر المدينة ^(٦) ، وكان معه بعض السكر . فمعد السكر إلى الجبل ، وهذا الجبل متصل بالمدينة ^(٧) من الجهة الغربية والشرقية ، ودون الجوف والقبلة . وحيث وصل السكر إلى الموضع الذي يمكن منه الرمي ^(٨) ، جعلوا يرمون على المدينة بالرصاص ، ورومام « الطابقي » صاحب المدفع بنحو ثلاثة أو أربعة مبالغ . وحين تأمل سيدنا المدينة ، وميز سهلها ووعرها . أسر من كان معه من السكر أن يرجع إلى منزله وتحقق أن يدخلها ^(٩) . لأنه — أطال الله بقاءه — كان له فطنة زائدة ، وتجربة صادقة ^(١٠) مع ما هو عليه ممارسة الحروب ، وفهه لما ترمزه الميون ^(١١) ، وما تضمنه الجيوب ^(١٢) . وأما

(١) يخ : فيها لكثرة وبأهلها .

(٢) كل صف : من رجال أهل البلاد وأتاعهم .

(٣) يخ : « محادثهم وجسرهم » . (٤) يخ : « رزول بالثبات » .

(٥) يخ : « الحلة بالحلية » . (٦) ينظر المدينة : يطلع عليها .

(٧) يخ : « لكونه متصل بالمدينة » ، وقد اكتشفها اكتشاف الرصاصة .

(٨) يخ : « الرمي الممازج » . (٩) يخ : « يدخلها ويزيل أثرها » .

(١٠) يخ : « صادقة غير جائدة » . (١١) يخ : « الرمي » .

(١٢) الجيوب : الصدور .

ثبوت الجنان^(١) والشجاعة^(٢) فثنى تحار فيه القول وتفسر عنه العبارة .
 هذا وقد رجع إلى « محله » ، وجمع كبراء قومه وأرباب دولته ،
 واختبرهم في كيفية قتالهم ، لينظر^(٣) سيدنا رأى القوم ، ويدفع بمشاورتهم
 عنه اللوم . فوجد الكل متفقين على رؤية مسلمين أمرهم إليه . قال لهم
 — عند ذلك^(٤) — ، إن هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج .
 وبساتينها كلها مدورة^(٥) بالسور . فحيطانها مراكمة وأسوارها متخالفة
 متكاثرة . ولو كان سور واحدة^(٦) لم يردنا . أو اثنين^(٧) ، أو ثلاثة لم
 يضرنا ، ولكن أسوارها مشفكة ، بعضها خلف بعض ، فلا بد أن نجسروا
 شتدائكم ومواليكم ، الذين لا سلاح لهم ، يحملون بأيديهم « القيسان »^(٨)
 وينهبون مع السكر^(٩) .

فكلما وصل المسكر لحائط من تلك الحيطان ، أو برج من تلك الأبراج^(١٠)
 بركه أصحاب القيسان بالهدم حتى يمحوا فيه طريقاً للمسكر . ثم يعاودونه إلى
 الحائط [الذي]^(١١) خلفه^(١٢) . وهكذا حتى ينفذوا إلى المدينة ، أو يقاربوها^(١٣)

-
- (١) أى : ثبت القلب . (٢) نخ : « والشجاعة المطارة » .
 (٣) لينظر : ليختبر ، ويسبر . (٤) نخ : « عند ذلك قوله المشكور » .
 (٥) مدورة : محاطة .
 (٦) في جميع النسخ : « سوراً واحداً ، والتصويب من قلنا .
 (٧) في جميع النسخ : « اثنين ، والتصويب من قلنا .
 (٨) القيسان : لغة أقبسية في أفروس ، وفزوس .
 (٩) نخ : « مع السكر بالمحض » . (١٠) نخ : « الأبراج بالبليان » .
 (١١) الزيادة من نخ . بر . (١٢) نخ : « خلفه في الشبه » .
 (١٣) نخ : « أو يقاربوها التباء » .

هكذا فعل - إن شاء الله - فلما أصبح الله بخير الصبح ، أمر الناس أن
يسقوا دوابهم ، ويقضوا ما ربههم أول النهار ، وأبى عن القتال في ذلك اليوم ،
لأنه كان يوم جمعة ^(١) ، فلما استقصت الناس ، وقضت حوائجها ، بحث لأهل
القيسان ^(٢) أن يأخذوا لباسهم وأمر السكر أن يذهبوا معهم ^(٣) ، وأوصاهم
على الأشجار والنخيل ، فلا يقطعون شيئاً منها ^(٤) . ومن قطع شجرة أو نخلة ،
فأف حسيبه . ومتولى الانتقام منه . وأمر عسكر الترك أن يقصدوا ^(٥) الجبل ،
مكانهم بالأمس ^(٦) ، وباق الطرف أن يحذقوا باليسانيين من الجهة الغربية
والجهة البحرية ، ويكون معهم أصحاب القيسان ^(٧) ، لينهضوا الحيطان التي في
طريقهم ^(٨) الخائفة بينهم وبين المدينة ، وأوصاهم - أيضاً - بأن لا يتصدوا
المدينة في هذا اليوم ، وإنما اشتغلوا بتوسيع طريقها ، وقطع جناحها حتى إذا
إذا حملنا عليها بعد اليوم ، لم نجد ما يشغلنا عن قتالهم ^(٩) . فتوهم في هذه
الحيطان فلا تنصروا عن قضاها . ثم عين لكل قبيلة موضعها ^(١٠) ولكل

(١) نبح : جمعة الأبرار .

(٢) نبح : مر : القيسان .

(٣) نبح : معهم بطانهم

(٤) نبح : مر : فلا يقطع شيئاً منه .

(٥) نبح : يقصروا .

(٦) نبح : بالأمس بالحكمة الكلية .

(٧) نبح : والقيسان بالنخيلة .

(٨) نبح : طريقهم .

(٩) نبح : قتالهم بمحضها .

(١٠) نبح : موضعها وحوزها .

٥

طائفة مركزها . فكانت « الزمالة » (١) أسفل الجبل ، من الجهة الغربية .
والترك من يسارهم في قبة الجبل المتصل بالمدينة (٢) . وعن يسار الترك المدافع
في أسفل الجبل من الجهة الغربية قبلة باب المدينة من القابر ، وعن يسار المدافع
من الجهة الغربية - أيضاً - الدوائر (٣) ، وعن يسارهم من الجهة البحرية
مخزن الشرق (٤) ، هكذا هيئتهم سيدنا - أيده الله -

فاستم كلامه حتى انهمل الصكر كالسيل وتراكم كقطع الليل ، واتبع
كل واحد رايته وقعد كل مقاتل جهته ، التي عينت له (٥) ، وارتفع النهار ،
وكثر النبار ، وحمل كل واحد على ما يليه (٦) ، فلم يكن غير ساعة حتى بلنوا
إليهم ، وغالطهم في جناتهم وحيطانهم . فجعلوا كلاماً مرواً يستأن إلا وحدوه
هذا وغرت حيلاته إلى الأرض سجداً .

ولما رأت أهل المدينة أن العذاب قد أحيط بهم ، والبلاء نزل بساحهم (٧)

(١) الزمالة : هم طائفة من « المخزن » الغربي الذي يضم نجح « الدوائر »
و « الزمالة » و « الغراب » و « البرجية » .
وأما « المخزن » الشرق فإنه يضم نجح « المكاحلية » و « أولاد سيدي عربي »
و « صبيح » و « أولاد العباس » ، وغيرهم من أهل النواحي الشرقية من
« ميتا الشلف » .

(٢) مخ : « بالمدينة المحلية » .
(٣) الدوائر هم إخوة البرجية ، وكانت رئاسة المخزن متداولة بين هؤلاء وأولئك
أيام الأتراك . ومن الدوائر « مفرحت حائلة » و « البعائية » التي ينسب إليها مصطفى
ابن اسماعيل ، صديق فرنسا ، وعدو الأمير الحاج عبد القادر .

(٤) مخ : « مخزن الشرق بلا اشتباه » .
(٥) مخ : « له وناحيته » .
(٦) مخ : « ما يليه لنيل ميطنهم » .
(٧) مخ : « بساحهم وبهم » .

فلما أنه سيصلهم ويستأصلهم (١). فجاءوا بمبا وشمالا ، ونزحوا من مواضعهم ، ولحق أولهم بآخرهم . ثم انكشفوا وركب ظهورهم الدكر ، يتتبعونهم كيف شاءوا وحيث شاءوا ، وأين شاءوا . وقبضوا منهم جماعة ، فأتوا بهم أسارى ، وحال بينهم وبين البناء (٢) كثرة الميطان (٣) . فكانوا مهما تقضوا حائطا وطلبوا خلفه ، إلا وجدوا تأخروا من ذلك الموضع (٤) وتمنعوا من وراء حائط بعده (٥) ، حتى قيل إنهم هدموا أكثر من خمسين حائطا .

وقد كلت أصحاب « النيسان » من اللحم ، وغد تربوا من المدينة (٦) ولم يبق يدهم وبينها إلى سور واحد ، فرجعت الناس وقد ظهر لهم النصر ، وبان لهم الفتح والانتصر . ولما كان لهم إذن في الدخول في ذلك اليوم ، لدخلوها (٧) ، فله در الدوائر في ذلك اليوم ، قد أبلا بلاء حسنا . وكذلك كل من كان في تلك الجهة نحوهم (٨) .

فكل ثقل الحرب عليهم . وهذا كله بمنظر سيدنا ومسمه (٩) ، ولذلك

(١) يخ : « ويستأصلهم ويذهب بمفاخرهم » .

(٢) في جميع النسخ : « البسات » والتصويب من قلنا .

(٣) يخ : « الميطان وصبرهم حيارى » .

(٤) يخ : « الموضع لما خلفه » .

(٥) يخ : « بعده حائطا » .

(٦) يخ : « من المدينة محل الموارد » .

(٧) يخ : « لدخلوها حينا » .

(٨) يخ : « ونحوهم وأتسى إليهم » .

(٩) يخ : « ومسمه باشتار » .

سبحان ربهم قريبا من المدينة - وقد مضى النهار - حلف على السكرك أن يدخل
المدينة (١) وقد أقبل الليل فلم يتم مراده ، وربما كانت المدد بذلك فرصة ،
لأن له خبرة ببلده (٢) ، فبحث بعض سدانه أن يأمر السكرك بالرجوع (٣)
فوجدوا . واتصل القتال . وقد أصيب من « بنى الأهواط » وأحلامهم (٤) ما يزيد
على ستين رجلا ما بين قتيل وجريح ، واحد (٥) عشر أسيرا . وحيث رأت
الأحزاب ما حل بهم (٦) علموا أنهم سيهلكون من آخرهم ، ولا قدرة لهم على
مطاردة من يوم آخر (٧) ، [بل لا يطيقون (٨) على ساعة واحدة (٩) ، واشتد
خوفهم ، وزاد وجعهم ، وتفرقوا جماعات ، كل جماعة وجعت لأهلها ، ومعدت
نحو وطنهم (١٠) ، ومنهم من مضى على وجهه حين الهزيمة ، فلم يرجع ولم يلتفت
إلى المدينة (١١) هذا لمن كان منهم بغير أهل ومال . وأما من كان منهم بأهله (١٢)

(١) فتح : « والمدينة واشتد مجاهد . . »

(٢) فتح : « يتقنه وتحمل بحيفه بقصة . . »

(٣) فتح : « بالرجوع لطريق الحال . . »

(٤) فتح : « وأحلامهم شبرا . . »

(٥) فتح : « واحد . . »

(٦) فتح : « بهم بما كرم . . »

(٧) فتح : « مطاردة يوم آخر ، »

(٨) فتح : « ولا يطيقون . . »

(٩) « واحدة لي يوم آخر ، »

(١٠) فتح : « وطنها طالبة للنجاة . . »

(١١) « المدينة بالعودة . »

(١٢) فتح : « بأهله وخشي من ورائه ، »

بقى حتى غشي الليل ، وسره الظلام ، فخلوا أنفسهم وأهلهم وهربوا (١) ولم يبق منهم إلا الجريح الذي لا قدرة له على المشي (٢) .

وحكى أنه مات منهم في اليوم الأول - حين رمى عسكر الترك (٣) ستة (٤) رجال وأمرأة كانت تخدمهم فأصابها رمية غلطاً .

وحين رجع العسكر صاد يمرض بعضهم بضاً . وأوجبوا دخول المدينة على أنفسهم ، وجعلوه فرساً . ثم أنه حين رجع ، قدم جميع عسكرة أمامه ، وتأخر فيمن كان حشيه وخدمته ، بعدما تحقق أنه سيظهر بها لا محالة (٥) . ثم تفكر في حاقة هذه البلاد ، وما تصير إليه ويحل بها من الفساد . وبها العلماء الذين حصر الله فيهم خشيته ، وولاهم على ذلك (٦) نجته ، ووصفهم بأخبار (٧) البرية ، وفي رضاه بشهادتهم عليه أعظم (٨) مزية .

أراد أن يحذرهم ، وينذرم ، ويطلبهم بما فيه . وسأل الله أن لا يحصل هلاك واحد منهم على يديه . كتب لهم كتاباً : « بد الحدة الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، إلى كافة علماء بني الأغواط » ، بد السلام عليكم ، ورحمة الله ، إن بلفك كتابي هذا اخرجوا هذا حالكم وأولادكم من هذه القرية

(١) نسخ : « وهربوا في الظلام » .

(٢) نسخ : « لا يستطيع على المشي الصحيح » .

(٣) نسخ : « حين رمى عسكر الترك رمياً شططاً » .

(٤) في جميع النسخ : « ستة » . والتصويب من قلنا .

(٥) نسخ : « لا محالة » ، مصدح جيوته فيها جولة » .

(٦) اسم الإشارة يعود على خشيته .

(٧) في جميع النسخ : « بخبر » . والتصويب من قلنا .

(٨) نسخ : « أحسن » .

الظالم أهلها » وانما زوا خارج المدينة إلى حبة ، وعليكم أمان الله . وإن ختم من يرضى السكو أن يوقع بكم ، وكلت بكم من يرضىكم . ولا تخطلوا ما فرم ، التي أراد الله حلاكها . فإن قبلتم النصيحة فاحذروا القضية . وإن أبيتم ، فإنهم أولادكم عليكم . والسلام » .

وختم الكتاب ودفنه إلى الرسول . فثمما وصلهم ذلك الرسول ، وحدم في حيرة وكربة ، وقد هربت عنهم الأعراب الذين كانوا محاصرين معهم ، وكذلك من خف حله منهم . وبقوا متحيرين لا يعلمون (١) ما يصنعون ، ولا أين يتوجهون ، وأصدقوا بالرسول [يسألونه] (٢) ، وهو راقب عنهم ، وحملوا يقبلون يده (٣) حتى كثر الزحام على تقبيل يده . مع أنهم كانوا لا يعلمون به ولا يلتفتون إليه .

فلما أخذوا منه الكتاب ، وقصوه ، وقبلوه ، بعدما حل الجبين وضوه ، أقوه مخصوصاً بالعلماء ، ومقصوداً بمن كان منهم بصيراً لا من به المي (٤) . فهمتهم (٥) ذلك فضل الملك وحله (٦) . ودلهم على مرغته في العلم وأمله ، وحبه فقير وفله . وانكبوا على الرسول والعلماء ، ونسكوا بهم ، وقولوا :

(١) بخ : لا يعلم .

(٢) الزيادة من بخ . ر .

(٣) بخ : يده كآله منهم .

(٤) بخ : ر : (من)

(٥) بخ : ر : فيهم .

(٦) بخ : وحله وحله .

لا نجاة لنا إن لم ترحمنا (١) ، وتوجه (٢) بجاهكم وكتبكم فينا ، فذنبنا أعظم
من أن يفر ، وبميتنا - حقيق - أن لا تكفر . ولكن لابد أن يكون لنا
جاهكم شفيها ، و [أن] (٣) تذكروا سيدنا بقول الله : « ومن أحيانا ، فكفنا
أسيا الناس جميعا » (٤) .

وها هو ما قد جنته لكم . ولكم اللفة علينا . وأن أيتم أن تشفوا لنا ،
فلا تترككم تخرجون (٥) من بين أظهرنا ، حتى تهلكوا معنا .

فأخذ العلماء كتاب صحيح البخاري (٦) - رضى الله عنه - وقدموا على
سيدنا [وسلموا عليه] (٧) فأعاد عليهم القول في نصيحتهم وشفقتهم عليهم (٨) .
فكلم رجل منهم فصيح اللسان ثابت الجنان ، له معرفة بطريق السلوك ، وانداد
على ما يخاطب به الملوك . وكان شاعرا فذبح سيدنا بأبيات ، وقبل الأرض بين
يديه ، ودعا له بالنصر والتكبير والزوال للفتح المبين ، وشكر فله ، وقبل نصرته
وقوله ، وقال له :

يا سيدي إن جعلتنا عتقاءك : فامنن على هؤلاء القوم (٩) ، واجعلهم أرقاءك ،

(١) نبح : « ترحمنا بغيابنا » .

(٢) في جميع النسخ : « وتوجهوا » . والتصويب من قلنا .

(٣) الزيادة من قلنا لمناسبة سياق الكلام .

(٤) سورة المائدة الآية (٢٢) .

(٥) في جميع النسخ : « تخرج » . والتصويب من قلنا .

(٦) نبح . ر : « سيدي البخاري » .

(٧) الزيادة من نبح . ر .

(٨) نبح : « وسفقه عليهم ولم يرض بنطيتهم » .

(٩) نبح : « القوم لله نعال » .

وادخر أجر عقوم^(١) عند الله تعالى ، ولا تحترمة^(٢) من جاءك شفيها ،
ولا تفضحوه . « وما تعلموا من خير قلن تكفروه » .^(٣) وإن شئت يخرجون
من البلاد بأهسهم خاصة وهي لك بما فيها^(٤) . فأعرض عن قتالهم ، وقال
لهم : لا بد من قتالهم . ثم أمرهم بالقيام من عنده^(٥) ، ولم يجيبهم على ما طلبوه
بكلمة من لفظه . فخرجوا من عنده مسرعين ، وطلبوا^(٦) الخليفة مهرويلين ،
فدلم عليه بعض خدماه ، وحينه لهم في مكانه^(٧) ، فاستأذنوا عليه في الدخول
بمنزله^(٨) ، وأرادوا أن يشفع لهم بوجهه ولفظه ، واعتذر لهم وأرجعوه في ذلك
حتى وعدم ، بعد أن أوعدهم^(٩) . ثم بينوا له ما يعلم به السلطان ، وأنهم
يذنبون مائة خادم^(١٠) ، وخمسة آلاف ريال بوجه ، ومائتين وخمسين سهرا
كلها مختارة من خيار كسب العرب^(١١) وأربعة^(١٢) أفراس من حثاق الخيل ،

-
- (١) حكذا في جميع النسخ . ولعله : عفوكم عنهم .
(٢) يخ : « ولا تحترمة » . وخضر الذمة : نقض العهد .
(٣) سورة آل عمران ، الآية (١١٥) .
(٤) يخ : « وهي بما لك فيها قاصة » .
(٥) يخ : « من عنده بلطفه » .
(٦) الخليفة : السيد محمد بن عبد الله .
(٧) يخ : « في مكانه ومقامه » .
(٨) يخ : « بمنزله في حفظه » .
(٩) أو عدم : تدهم .
(١٠) يخ : مائة خادم من الوصفان .
(١١) يخ : « العرب باحتكام » .
(١٢) أربعة : روى فيه اللفظ . لأن الفرس مؤنثة .

وما نقي تور . هذا زائد على القدر الذي [تعطيه إياه] ^(١) في كل عام . ففضي
إليه وأعلم بهذا كله ، وسأله أن يقبل منهم ، ويغفر ^(٢) عنهم ، فحيث رآه سيدنا
حريصا على هذا الأمر استحي أن يرده خائبا ^(٣) ، لئله أنه يصيح في خدمته
وحليفه في أكثر وطنه . فقال له : الأمر إليك والخير طويته عليك . فأنزل معهم
ما أردت ^(٤) . فخرج من عنده والبشرى تفرأى ^(٥) في وجهه . فبشر العلماء
بالنور عن قومهم ، وقبول سيدنا بما في رأيهم ^(٦) . فطافق يدعو ^(٧) أولئك
العلماء كلهم ^(٨) لسيدنا ولئن كان لهم سيبا في رضاه بما مرحو من الله قبوله .
ثم قاموا من عنده ودخلوا على سيدنا ^(٩) ، وطلبوا منه أن يكتب لهم بالأمان
والرضى بالبقاء ، وأن يسي لهم الممدد ، الذي يعطونه ^(١٠) ، على الدوام ،
ويستحق فيهم عدد السنين والأيام . فامتنع من الكتابة ، وقال لهم ، أن أنتم
اليوم بما ذكرتم ، أو تدفموا منه ما قدرتم ، والباقي تعطون فيه رحائن ^(١١)

-
- (١) في جميع النسخ : . يعطوه . . والتصويب من قلنا .
(٢) يع : ر : . يغف . .
(٣) يع : . خائبا من منه . .
(٤) يع : . ما أردت ، ولا مرد لما قصدت . .
(٥) يع : . تفرأ . .
(٦) يع : ر : . لرهم . .
(٧) في جميع النسخ : . فطافقوا يدعون . . والتصويب من قلنا .
(٨) يع : . كلهم لما رأوا قبوله . .
(٩) يع : . على سيدنا وهم بسطا . .
(١٠) في جميع النسخ : . يعطوه . . والتصويب من قلنا .
(١١) يع : . إلى حائن . .

من أبناء كبرائكم ومشائخكم^(١)، وإلا لم يكن لكم حدى أمان، وكلامى هو كتابى. فانصرفوا راشدين^(٢)، وقد تركت لكم ما نقي ثوب، سباً وكرامة لكم، فزادتم فضلكم إكراماً، وشكروا صميمه. ولم يبق عليه ملاماً، فرجعوا لأهلهم مبشرين ولما قدوم به جامعين. فلم يكن وقت العمر حتى أتوا بالليل، وعشرين خادماً، وشيثاً من العروش^(٣) وقالوا: يريد «المخلصين»^(٤) الذين كانوا عندما أن يرجعوا إلينا. فبهتهم معهم إلى تلك الساعة، وبالفد شرحوا في دفع النضة، والدرهم، والعروش. ومضوا يومهم كله يدفنون^(٥). وسيت انطأنت أنفسهم وتحققوا الأمان لئيه، جاءت كبرائهم وأميانهم، ليدفع كل واحد ما عليه. ثم عين لهم ستة من كبرائهم الذين يأتون بأبنائهم، يكونون رهناً تحت يديه، فامتلأوا لأمره، واستمعوا لقوله. فلم يكن ساعة، إلا وقد أتوا بكل من عينه لهم، وطلبوه أن يرتحل عنهم، ويخلف من يأخذ منهم، ويبقى رهنائهم تحت يده، فوافقهم فيما رغبوه، وأجابهم لما طلبوه، لشؤم بلادهم، وقبح أرضهم.

فأثراهم، وغبارها حيم، فلا توائق كل ذى طبع سليم. فنهما هب ربح ولونسيم الصبا، إلا وارتفع منها ضمار عظيم، وأظلمت منه الأرض،

(١) نخ : « ومشائخكم فافهموا خطاي .

(٢) نخ : « راشدين وارجعوا لأهلكم .

(٣) نخ : نخ : « من العروش بالاستطاعة . .

(٤) الخلاصين : كلمة إقليمية في الحياة .

(٥) نخ : « يدفنون المقوم والنصوص . .

وامتلاء منه الجرو طولا وعرضا^(١) . ومع ذلك أنه لا نبات فيها^(٢) تمشيه
 اللذباب ولا شجر يساحتها يكون منه الاحتطاب . وهذا يوجب الاشتغال منها
 والتباعد عنها . فوعدهم بالارتحال على أن يأتيوا له بما بقى عليهم في «عين
 ماضى» . أو قبل أن يصلها^(٣) . فاتفقوا على ذلك ، وخلف الخلاصة^(٤) ،
 وأصبح يوم الاثنين سرعلا عنهم ، وأخذ منه أبناء كبرائهم ، الذين
 وضعهم رحنا ، وكذلك رجالهم الذين أسروا . وقد كان أطلق منهم رجلين
 أحدهما مداح ، والآخر مجروح ، ففضل عليها^(٥) . وأما الباقون ، فطلب
 أهلهم فيهم القدا ، كل واحد على قدر طاقته ، فقبل منهم ذلك ، وأسروهم
 بالصبغة في دفع ما بقى عليهم^(٦) ، وكذلك الذي يفتدون^(٧) به رجالهم^(٨) .
 ومن جملة ما أسروهم به أن بعض الغنل سرق^(٩) من عسكره ، وأن الذي
 سرقها^(١٠) لمن الإحزاب ، أسلافهم . وأن يردوها ، ويأتوا بها^(١١) ، وإلا

-
- (١) نبح : « ولعرض » . نبح : نر : « وعرض » والتصويب من قلنا .
 (٢) نبح : نر : « بقرها » .
 (٣) نبح : « أن يصلها فليتحروا » .
 (٤) الخلاصة : المختارين من الجيش لاستخلاص الجباية .
 (٥) نبح : « فنفضل عليها إلى أن صار هو المندوح » .
 (٦) نبح : « عليهم لرواج بضاعته » .
 (٧) في جميع النسخ : « يفتدوا » . والتصويب من قلنا .
 (٨) نبح : « رجالهم عن إصنائهم » .
 (٩) في جميع النسخ : « سرقوا » . والتصويب من قلنا .
 (١٠) في جميع النسخ : « سرقهم » . والتصويب من قلنا .
 (١١) في جميع النسخ : « أن يردوهم » ، ويأتوا بهم ، والتصويب من قلنا .

لم تكن فدية في إخوانهم . ثم مضى حتى نزل « الرشاش » ، وهو أسفل الواد الذي ينزل من « أم الصلوح » (١) وغاية سيره من « بني الأغواط إلى « الرشاش » ثلاث ساعات ، قاصداً « عين ماضي » . ولا نزل أتوه أهل « تاجوت » (٢) ، واستشاروه (٣) ، هل يأتون (٤) له بالخطب في هذه الدار ، أو حتى ينزل عليهم . فقال لهم : لا نزل عليكم لأن أنزلت عليكم أخف (٥) أن يضركم الجيش (٦) ، فإن أردتم أن تدفوا على أنفسكم هذه الكلفة فدونوا على منزل بعيد منكم (٧) . وأما العلف فلا تحملوا أنفسكم بشيء . فقالوا : لا بد من ذلك . لمحيث وأي حرصهم وعزمهم على ما أرادوا ، إذن لهم في أن يأتوا بثلاثين حلاً قط ، ولا يزيدون عليها شيئاً (٨) ، وأعطاهم الإبل التي يحملونها عليها ، وأوصاهم أن يأتوا بذلك في المنزل الذي تعرفونه ببيدأ عنكم . فدعوا له وشكروا فضله وفضله ، ومنتوا له منزلاً يليق به قريباً من « عين ماضي » . وانصرفوا بالإبل (٩) ، وتركوا منهم واحداً يكون دليلاً على المنزل الذي نمتوه وعينوه . وبالنسبة لرحل وزل على أربع

(١) مخ : أم الصلوح — بصاد مبهمة — بالتماضي .

(٢) مخ : أهل تاجوت .

(٣) في جميع النسخ : واستأشروه . والنصوب من قلنا .

(٤) في جميع النسخ : يأتوا . والنصوب من قلنا .

(٥) في جميع النسخ : أخاف . والنصوب من قلنا .

(٦) مخ : الجيش لما إليهم .

(٧) مخ : ومنكم في ذلك .

(٨) مخ : شيئاً فيضركم .

(٩) مخ : بالإبل ليأتوا بما بينهم .

سوانح ^(١) في موضع متوسط بين « عين ماضي » و « تاجوت وأستاج »
إلا أنه إلى « تاجوت » ^(٢) أقرب : يقال له « أستاج » ، وهو موضع منبسط ،
ذو مياه وعشب ^(٣) ، إلا أن ^(٤) ماءه يفضله أفضل من البعض . ولما رأت
« الحقة » أفرعت الناس إلى « تاجوت » ^(٥) ، منهم بائع ، ومنهم مشتق ^(٦) .
وبعث معهم شواشه يبتغون الناس ظلم ^(٧) أهل المدينة . وقد حصل لأهل
البلد دبح كثير ، وفائدة عظيمة ، حتى أنهم لو وجدوا نزل عليهم كل سنة ، بل
كل شهر ^(٨) ولا يضرهم ما يذفون له ^(٩) يجران ذلك بالبيع ، الذي حصل
لهم . فكانوا يشترون من « الحازنية » : النفس ، ثماية رؤوس بريال
بوجه ^(١٠) ، والهر أربعة رؤوس بريال بوجه ^(١١) . ومع ذلك ^(١٢) لم يذفوا

-
- (١) سوانح : قد أشرنا فيما مضى إلى هذا الجمع ومخالفته لقياس الصرف .
(٢) نبح : « تاجوت موت » .
(٣) نبح : « تاجوت موت » .
(٤) نبح : « ذا مياه وعشب بالأرض » .
(٥) نبح : « أ » .
(٦) نبح : « تاجوت موت » .
(٧) نبح : « مشتق الثينة » .
(٨) نبح : « من ظلمهم أهل المدينة » .
(٩) نبح : « كل شهر ، وتبقى جيوشه عندهم قيمة » .
(١٠) نبح : « له من المخرم » .
(١١) نبح : « بوجه » . و « بريال بوجه » صرف جزائري قديم يساوي
فرنكا وستين سنتيما تقريبا .
(١٢) نبح : « ولم ذلك » .

لهم ديناراً ولا درهما (١) ، وإما يذفون لهم « البرايس » (٢) والحيالك ،
ورعاً دفنوا لهم من البحر ، حتى أن الرجل منهم يأتي بالبرنوس (٣) الردي ،
والحيالك ، فيأخذ عدة وقرص من البحر والشمع (٤) . وحيث رأى الناس لم تزل
في قضاء حوائجها ، ولم تستقم من مآربها ، أصبح مقيماً ليتقوا غرضهم ويكملوا
مرادهم ، وركب هو بصيد كما كانت عادته في كل يوم منذ وصل (٥) ، أما كن
الصيد (٦) ، وحسوها الجبارى ، التي هي أعظم مصيده ، وأفضل مرغوبة ، وتفضيل
هذا الصنف من الصيد يبلغ عنان السماء ، وأكثر من حديثه العلماء والأدباء .
فقرأهم تارة يذكرون حسه (٧) ، وتارة يصفون وعل الطير عليه وخوفه ،
حتى أنهم قالوا : سلعه سلاحه ، وسبيته جناحه . وما ذلك إلا لشدة اعتنائهم به (٨)
أكثر من اعتنائهم بغيره . ومن شهد ذلك استعسهم فيها قالوه ، وأعذرهم فيها
استمالوه . وقد اجتمع هذه من الطيور الحسان ، المختلفة في الأشكال والألوان

(١) بخ : « أولاً درهما للبحر » .

(٢) في جميع النسخ : « البرايس » . والتصويب من قلنا . والبرنوس ،
أو البرنس : ثوب ينسج من صوف أو وبر ، له « إسكيم » ينطى به
الرأس شتاء ، وهو من البسة الجراريين الذين يظنون المناطق
الباردة ، كما أنه شعار البرابرة (القبائل) :

(٣) بخ : « بالبرنوس » .

(٤) بخ : « وشمع في ذلك » .

(٥) بخ : « دخل » .

(٦) بخ : « الصيد للطيور » .

(٧) بخ : « حسه وجوفه » .

(٨) بخ : « به وغيره » .

ما لم يجمع عند غيره . من الملوك (١) فكانت ترد عليه من كل مكان ، فيقبلها
ويغزلها عليها الجزاء الكثير ، الذي أوجب جلبها (٢) . فلما كثرت عنده هذه
يختار الموارم (٣) ويقدمها ويزيدها عليها (٤) . وحق لهذا الصنف التقديم
والفضل (٥) ، لأنه زائدة على غيره من أصناف الصنوبر ، لأن الصنوبر نوع
وتحت أصناف كثيرة (٦) ، إلا أن بعضها أفضل من بعض في الصبر والإقدام
وغير ذلك . ومن فائده مشاهدتها ، ولم يحظ بزعتها حين رسلها (٧) ، فليبه
« بمسورة الأسد » وقصيدة النجيبى (٨) : فقد ذكر أن من أوصاف الطير
وأصنافه والأسماء به (٩) ما يبرد القلب ويرى الدليل . وبعد الامتحان ،
يسكرم المرء أو يهان ، وليس الخمر كالبيان . وقد أحسن النجيبى .
حيث قال (١٠) :

(١) نغ : « من الملوك ، ولا رأيا أحد من الفتي والصغار » .

(٢) نغ : « جلبها بالبيان » .

(٣) الموارم : الجوارح المفترسة كالبار .

(٤) نغ : « حل غيرها بالصوارم » .

(٥) نغ : « والتفضيل على الطيور » .

(٦) نغ : « كثيرة لذلك » .

(٧) نغ : « رسلها وقاب عنه مشاهدتها » .

(٨) هو إبراهيم بن عبد الجبار النجيبى ، توفي ببلاد السودان في أواخر

القرن التاسع الهجرى ، وقصيدته هذه تسمى « القريد في قصيد الشريد » وترصيد

الوليد . . وهي كلها في القصيد توجد مع شرحها غطوطا في « برلين » .

وتوجد — أيضا — نسخة خطية بمكتبة الجزائر ، تحت رقم (١٥٠٩)

(٩) نغ : « والأصطياد به حال النجيبى » .

(١٠) أى على وزن البحر الطويل ، المقبوض المروض والضرب معا .

أخى حل ترى الأيام تجمع شملنا ونحن على جرد سراع نطالع (١)
لدى كل روعة وأجواس طيرنا لما زجل من فوقنا وفماقم (٢)
وكانت شيمة سيدنا كقولہ :
فأصبح سلما لوردى بطا النرى وتنظره فوق الثريا القنايع (٣)
ولو حضرنى شارح « السلوانية » (٤) ، جلبت منه ما يتناسب المقام ،
ولكن لم يحضرنى ، لأنى قيدت هذه الأوراق فى أثناء السفر ، ولم تصحبنى
كتب فى هذا النعى أستعين بها ، ولا قوة حفظ فعول عليها ، وربما كان
حذفه وعدم جلبه ألقى بهرشنا ، لأنه يؤدى إلى الخروج على (٥) ما نحن
بصدده . وهذه الإشارة — هناك — كافية (٦) .

ثم أصبح مرتحلا قاصداً « عين ماضى » ، فوصلها فى ثلاث ساعات .
فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت ، وبنوده قد أقبلت ، فزعت قلوبهم ، وطاشت
عقولهم ، وغلقوا الديار ، وعلوا الأصوات وهم مصرخون ، وباطاعة وطلب
الشريعة معلنون . فزلت « الحلقة » بقرب السور ، بنحو المائة ذراع . وكان
ماؤها الذى ينزل من صدر الجبل ويدخل المدينة (٧) شاقا « الحلقة » داخلا

-
- (١) لطالع : ينتظر الصيد ، وتترقب بروزه ، وتطلع إليه .
(٢) القنايع : روح من القربان ذات لوبين : أبيض وأسود . طوية اللب .
مفردها قمقع . ويصح أن يراد بها أصوات الطيور أيضاً .
(٣) القنايع : جمع قنيع ، كقنفذ : القصر الحميم .
(٤) السلوانية : روضة السلوان . وقد شرحها أبو القاسم محمد بن عبد الجبار ،
المتوفى بغاس سنة ٩١٩ هـ .

(٥) أى « عن »

(٦) أى : كافيات .

(٧) أى : للمدينة للانتفاع .

من طرفها على الجبل ، نازلا بين أحبيتها (١) حتى نفذ إلى العارف الآخر
على المدينة ، وجاوزه إلى المدينة على عادته ، ثم أن أهل المدينة مكثوا ساعة ،
لا يرى شخصهم ولا يتبين خبرهم وتغير بعض الناس في أمرهم ، حيث رأتم
لم يخرجوا خوفاً أن يتغير السلطان عليهم ، فيوقع بهم . وبعضهم فارع (٢)
لتأخرهم ، يريد أن يكون له نصيب في غنيبتهم كاللواقي (٣) قبلهم . فبينما
الناس مترددون (٤) في أمرهم ، شاكون في قدرهم ، وإذا بهم خرجوا
بأسائهم وعلائهم ، مقدمون النساء أمامهم ، وتلك كانت عادتهم . فلما دخلوا
إلى « الحلة » (٥) أمر السلطان من أوقف للنساء بمكان بعيد من فسطاطه
مستكبين من بساطه . وأذن للماء في التقدم ، فتقدموا وسلموا عليه ، وسألوه
أن يرفق بهم ويشفق من حالهم وأن يفيهم من التطبئة الأولى التي فرضها
عليهم ، فإنهم لم يقدروا عليها ولا طاقة لهم بدفعها . فلما سمع كلامهم
واستصغى خبرهم أدركته الحنافة والشفقة عليهم ، وجعل لهم « لزمة » (٦)
أقل من الأولى ، وأعطى لنساءهم سوار (٧) فضة لكل امرأة منهن (٨) .
ورجعوا ، فدخلوا مدينتهم فارحين مستبشرين بما أنعم عليهم السلطان

(١) نبح : بين أحبيتها ما شيا بمصلحته .

(٢) في جميع النسخ : « فارحا » ، والتصويب من قلنا .

(٣) كاللواقي : كالنساء اللواتي كانت له قبلهم .

(٤) في جميع النسخ : « مترددين » ، والتصويب من قلنا .

(٥) نبح : « دخلوا الحلة » .

(٦) لزمة : ضريبة .

(٧) نبح : « سور » .

(٨) نبح : « منهم الأول فالأول » .

واقترناه فضله من تخفيف الزمة عنهم والأمان (١) . ويوم نزلوه على « عين ماضي » قدم أولاد يعقوب ، « القبالة » (٢) يابلهم وشيلهم التي اشترطها عليهم ، قبلها منهم . وبأند أصبحت أهل « عين ماضي » يدفون تطيبتهم من الخليل وانخداعهم والدرهم ، (٣) فدفوا جزءاً وكلوا الباقي في اليوم الذي بعده . وتمذر عليهم طرف منها . ففضل عليهم بترك خادم وفرس (٤) . وحيث رأوا « المحلة » منية بساحتهم ، قالوا : قمؤلاء لقد قصرنا في ضيانتهم ، فأخرجوا مائة حمل من الشير : علف للمحلة (٥) . ثم أقام بها يوم الجمعة ينتظروا القدوم « بنى الأغواط » بالزمة (٦) . فقدموا في ذلك اليوم ، وقد أتوا يعضها ، فدفوه (٧) . وذلك خمسة آلاف ريال « بوجه » وأدبرون خادماً . ورجعوا لإكمال الستين خادماً الباقية من المائة ، والمائتين جلاً وخمين جلاً . وأوعده بأنهم سيمنون أربعة من الخليل التي سرقها (٨) « الخاليف » نصله في منزله هذا (٩) ، وما بقي من الزمة (١٠) ، فلم يقدروا على لحوقه في الطريق بها ، وإنما يصلوها جملة إلى « معسكر » (١١) وإن قدرنا على لحوقه فبإذن الله .

(١) نبح : « الزمة والأمان » .

(٢) القبالة : القبلجون ، الساكنون ناحية الجنوب . وكلمة « القبالة » اقلية الزمرة

(٣) نبح : « والدرهم حده » .

(٤) نبح : « خادماً وفرساً » . وفي نبح : « خادم وفرس منها » .

(٥) علف للمحلة : أي دراب المحلة ، من شيوخ وبغال ، وجمال وهم جرا .

(٦) نبح : « بالزمة » . (٧) نبح : « فدفوه قادماً » .

(٨) في جميع النسخ : « سرقهم » والتصحيح من قلنا .

(٩) نبح : « يصلونك في منزلك هذا عاجلاً » .

(١٠) نبح : « اللازمة » .

(١١) أي : إل مدينة « معسكر » . وفي نبح : « إل المعسكر بالتحقيق » .

فهم كذلك (١) وإذا بجبل من « بنى ميزاب » (٢) قد لحقوا إلى « الحلة »
 وتركوا عسكرهم نازلا على « بنى الأغواط » (٣) طامنين أن يتنص سيدنا
 هبده مع « بنى الأغواط » ويخرجهم من بلادهم ويسلمها « لبنى ميزاب » (٤)
 فلم يلتفت لكلامهم ، ولم يسمح لقائهم . فلما يشعروا أنه غير متنص
 عهد « بنى الأغواط » سألوا منه أن يعمل بينهم وبينهم (٥) صلحا ، ويأمرهم
 أن يطلقوا من كان عبوسا عندهم من « بنى ميزاب » (٦) فكتب لـ « بنى
 الأغواط » كتابا : « أن أطلقوا « بنى ميزاب » الذين حبسهم ولا نمرح أحدا
 من أولادكم ، إلا إذا أتاني كتاب من قبل « بنى ميزاب » : وأتكم سرحتهم
 أولادهم . (٧) وأما الصلح فلا أحلحكم عليه (٨) فأتهم أعلم بما يصلح بكم والسلام .
 وفي هذه الأيام التي كان مقيما على « عين حاضي » ، شرع في إعطاء
 المبراهم والدنانير لوجوه قومه وفؤاد عسكره ومقدي قبائله ، فلم يبق منهم
 أحد إلا أعطاه ، ولا صاحب خدمة إلا واساه ، ولا ذو نجدة إلا ساباه . ولما
 فرغ من العطاء الذي لا يرجع إليه ، ولا منفعة له فيه سوى الثناء عليه ، أخذ
 يسأل القبائل على وجه العرض ، الرجوع ثوابه — إن شاء الله — يوم الجزاء
 والعرض ، فأعطى لكل قبيلة بقدر حاجتها ، ولكل طائفة على حساب أهلها

(١) نبح : فهم ذلك في المخاطبة بالانفواء .

(٢) نبح : « مزاب » .

(٣) نبح : « بنى الأغواط بلا أرتياب » .

(٤) نبح : « مزاب » .

(٥) أي : بين بنى ميزاب ، وبنى الأغواط .

(٦) نبح : « مزاب » وفي نبح : « بنى ميزاب فلما » .

(٧) نبح : « وإتكم لأولادهم سرحتهم » .

(٨) نبح : « عليه بالختام » .

فأوصلهم مروه ، جنة وتصبلا ، وعهم هذه ، حقيرا وجيلا ، فأوجب تغليد
ذكره يذاك ثناء جيلا .

الحاصل أنه مها شهد أحد عطاءه في ذلك اليوم إلا جزم بأن نفس غيره
من الكرام لا تسح بعتك ، بل لا تحود بشر عشرة (١) . ولو نظر عاقل في
سيرة غيره من الملوك وتأملها ، وتتبع أحوالهم وتحققها ، مع اطلاعه على سعة
ملكهم وقوة سلطانهم ، ونسب ذلك للذي مدح من فضلهم ، لوجد أنه لم يف
بقدر ملكتهم ، ولم يناسب عشر منزلهم . وهذا أمر لا يخفى على ذي بصيرة ،
ولو كان أمي . وسيند بتقلب المدح على سيهم ، فيصير في حقهم نقصا وذما .
وفي بحث فيه يكون مزاحا وتهكا . وأظهر له الترق بيهم وبين من ذكرنا بعض
شماله . وطوبىنا بحماسة الظاهرة من معاللة الدابة على فواصله ونضائه . فلي هذا ،
لو استيقنوا أنه في ميدان المجد لما سبقوه ، بل لو جعلوا كلهم شق عدل ما وزنوه
ولا سلقوه .

ليت شعري هل وجد في زمانهم افتجب خدمته وطاعته عليهم . وقد أحسن
بعض أدباء النصر ، حيث مدحه بقصيدته المدرية التي دلت على كمال المدهوش ولصاحبة
وبلاغة [المادح] (٢) ، التي أولها (٣) :

بدأت بحمد الله في معرض الثناء

وفي الانتعار بهجة وثناء

(١) نبح : « يعتبر عشرة بين الأنام » .

(٢) الزيادة من نبح .

(٣) هذه القصيدة من البحر الطويل ، المقبوض العروص المحذوف الضرب .

وبعد فان تصدى في النظم شائع^(١)
 إلى مدح من رأى به البصر
 ومن خصه الرحمن بالجد والملا
 وحاز الفخر والمال ساء
 دعا فأجبه المال مطيعة^(٢)
 وقد كان منها منة وإياه
 وناف^(٣) على الآمال آلاؤه التي
 بها للروى طراً غنى واعتناء
 وأتت له العلياء زمام [فضلها]^(٤)
 فنها له ما يفتنى ويشار
 ومن سببه^(٥) لتناس فيض ومرم
 نسيم كثير دائم ودواء^(٦)
 فإت دمت حصرا في كلة فارتجم
 فإت البهور لم نزلها دلاء

(١) الشطر الأول من البيت عتلى الوزن .

(٢) الشطر الأول من البيت عتلى الوزن .

(٣) نافت ، : زادت .

(٤) الزيادة من فخ ، والشطر الأول من البيت عتلى الوزن .

(٥) سببه ، : طأؤه الجوزيل .

(٦) ودواء ، : الأصل في الرواء الماء الكثير الذي يروى الطعام ، ويؤكل به .

- (١) ولم يزل ألف عام... الطير مسرعا^(١)
 (٢) ... قاتل قاتل بمحققين سما
 (٣) ولكن ذا نون يسير ذكرته
 (٤) ... تعرف منه جرعة صفاء^(٢)
 (٥) ... أن ركبت فيه منافسا
 (٦) ... تمل ولا تمل ذا غلاء^(٣)
 (٧) ... ثم بعد ثمانية^(٤)
 (٨) ... وكالأول^(٥) ثم ختمه نصف ماء^(٦)
 (٩) ... وعنه إلى عتيان قبل وبعد
 (١٠) ... شئت أن تصف قبله كتاب^(٧)

- (١) الشطر الأول من البيت غير موزون .
 (٢) الشطر الثاني من البيت مختل الوزن .
 (٣) الشطر الثاني من البيت غير موزون .
 (٤) «أربعين» : يشير إلى حرف الميم الأول من كلمة «محمد» فإن الميم تعد بأربعين في حساب الجمل .
 (٥) «ثمانية» : يشير إلى حرف الهاء من كلمة «محمد» فإنها تعد بثمانية في حساب الجمل .
 (٦) «وكالأول» : أي كاللميم : إلا أنها تعد بثلاثين لأنها مضعفة في كلمة «محمد» .
 (٧) «نصف ماء» : يريد به حرف الدال ، من كلمة «محمد» . لأن حرف الدال يعد بأربعة في الحساب الجمل وهذا العدد بعينه يساوي نصف عدد «الهاء» ، التي تساوي خماسية كما تقدم ، والشطر الثاني من البيت غير موزون .
 (٨) «وصفه إلى عتيان» ... الخ ، أي انسبه إلى أبيه عتيان الكردى ، الذي كان قبله في الوجود ، وكنيته أبو شعبة ، لأن عتيان اسم لابته الذي كان =

وَأَكَّدَ سَوَّلَى أَنْ يَلُومَ غُلَا
فَلِلدِّينِ وَالِدِيَا بِذَلِكَ بَقَاءُ

وهي قصيدة طويلة تزيد على الخمسين بيتا . ولو جئت ^(١) ما قيل فيه من كلام الشعراء موزونا وملحونا لاحتجت ^(٢) في ذلك إلى عدة أسفار ، ومع ذلك فلتترك التثنية ونأتى بما هو مختار ، ولكن إن حضرنى شيء من ذلك فإياي لأذكرن بعضه - إن شاء الله - من غير حيل .

واعلم أنه لما قضت الناس جميع حوائجها ^(٣) من كموة وتمر . وتزودوا فلفظ وغيره أصبح يوم الأحد مرتحلا ، وأخذ طريق « رداد » . وهي بين جبلين ، تمر في سيل الماء ، إلا أن أسفل الوادى لا ماء به ^(٤) . ثم بعد مسافة فصل إلى الماء وتسير بسيره ^(٥) ، بحيث لا تخرج عنه يمينا ولا شمالا . وإنما صوب الطريق هو مجرى الماء حتى تصعد إلى قرب فم الوادى . فسارت ساعات حتى نزل فم الوادى . وهذا الوادى ينزل إلى « النشيا » ، إلا أن ماءه مانع أجاج ^(٦) وأرضه ذات رمل وعجاج . فاستقى دوابه من لم يكن سقيهم من « رداد » . والبعض

== وجوده بعد وجود أبيه الباقى محمد الكبير ، فإذا ناسم عثمان اشترك فيه أبوه عثمان الكردى وابنه عثمان بن محمد الكبير . والشرط الثانى من البيت غنزل الوزن غير جار على القياس النحوى .

- (١) نج : مر : « جمع » .
- (٢) نج : مر : « لاحتجت » .
- (٣) نج : « حوائجها النالة على خير » .
- (٤) نج : « لا ماء به وجهاء » .
- (٥) نج : « بسيره اتصالا » .
- (٦) أجاج : مر .

ذهب إلى ماء عذب بقرب هذا المنزل ينحو الليل ونصف ، واستقى منه لنفسه
وسقى قوايه ^(١) .

وبالتدريج وجر « بالمالح » . فكانت طريقة بطن الراد حتى صعد
إلى « عجيبة » ^(٢) وأخذ طريق « التمس » ، وجر يده بـ « المكدر » ، وفيه
عين ماء جارية على الأبد لا ينقطع ماؤها ^(٣) ، إلا أن ماءها قبل في
قعره ، فلم يكف الجيش الكثير ، فجاوزوه حتى نزل « الخير » على ست
ساعات . وهذا المنزل ثلاث يوم ^(٤) ، ومنها « شلف » . وهي أصله كما

ذكرنا سابقا ، وقد كانت نزل هذه الدار حيث كان ذاعبا لـ « بين الأغواط » ،
كما سبق ميينا ^(٥) وهذا « الخير » من الأماكن التي لها بال في أرض الإسلام ،
من كونه ذاعبا كثيرة وأرض واسعة ^(٦) وجبال مرتفعة ومدن بهيجة متقاربة ،
إلا أن بعضها أمر بأهله كـ « قصر العجالة » و « قصر الرحامنة » و « تادماة » ^(٧) ،
وأكثرها قد خرب وبقي أثر البناء دالا على بانيه ^(٨) ، وأعطى [وعظما] ^(٩)
لكل من رآه ومناديه : كما حكى : أن سيدنا — عليه السلام — مر بقرية ،

(١) نبح : « دوابه بما يراد » .

(٢) نبح : « عجيبة المحرر » .

(٣) ماؤها بالثبات .

(٤) نبح : « عيون بعضها لبعض لاحقا » .

(٥) نبح : « ميينا بالأعلام » .

(٦) نبح : « واسعة شهيرة » .

(٧) نبح : « وتادماة بعبارة متجارية » .

(٨) نبح : « الأعلى بنائه » .

(٩) الزيادة من نبح : ر .

قد حربت حصونها ، وجفت أشجارها وأبهارها (١) . فقال مخاطباً الملك :
يا خراب أين أمالك ؟ (٢) فتودى — عليه السلام — : بادوا وضئهم الأوفى
وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم ، فسكى وانصرف — عليه السلام — .

وهنا أمر مشايخ أعراب تلك النواحي أن يرجع كل واحد لبيته وأن
يسكون باراً بأهله ورعيته . وذلك كشيخ « العمور » ، الذي كان قدومه عليهم
وعلى أهل « جبل راشد » (٣) كله ، كما كانت عادة أسلافه من قبله . وكذلك
مشايخ « أولاد يمتوب » ، « القبالة » وغيرهم . ولم يبق معه إلا « أولاد
خليف » (٤) ، والذين سرحهم لم يذهبوا حتى يسأل كل واحد منهم الأمان
لنفسه وأهله ، فيؤمنه على أن لا يسكون منه تعصير في خدمته ولا له
خروج عن رعيته وطامته ، ويوصيه على أن يدفع « زمته » في وقتها ، ويسكون
قاعاً بما لحا وما عليها ، ثم يصرفه (٥) . وباتت الناس تتساقط كؤوس المسرة
والبشرى ، وتذكر أن منازلها قريت من الظهراء ، بعد أن كلت أشجارهم
وقرت من الصحراء ، وكثر لرحمهم حتى عاد وقت التمتة يشتربون فيه البكر .
فكاد هذا الموضع أن يسمى « بدار الفرحين » ، المؤذن بقرب الولد
وملتق المحلطين . وحيث برزت للناس أوطانها ، وذهب لنوبها (٦) ، وهماؤها ،

- (١) نبع : « وأبهارها وزالته مدونها » .
(٢) نبع : « أين أمالك ، الخليل والأشهر » .
(٣) جبل راشد : الاسم القديم له « جبل عمور » .
(٤) نبع : « أولاد خليف مبدلون لجهدهم وخيرهم » .
(٥) نبع : « يصرفه بتمتها » .
(٦) لنوبها : تعبها الشديد .

أصبح مرتعلا بملكه مقصرا في منزله ^(١). فكانت طريقته متعذرة مع « وادي سبتاق » ، فسار أربع سوايح ^(٢) ونزل « عين وزاحه » ^(٣). وبهذا المنزل مدينة ، إلا أنها خالية ^(٤). وأصابنا الثلج في الطريق ودام كذلك حتى نزلنا واستقرل حتى غطى السهل والجبل ، وعجز عن مكابذته الفرس الضيف والجمل . ولما سحت الناس رحالها ^(٥) ، وبست ^(٦) أضيئتها ونيامها ، قدمت « الأحرار الشراقية » بالإبل والخيول التي اشترطها عليهم ، فقبلها منهم وعنا عنهم ^(٧) . وسأروا فيما بقى لهم من الإبل أن يعطوا قبتها دراهم ، ويبنوا له تلك القيمة وإن وجدوا بعض الخدام ^(٨) دفعوا في كل ثلاثة من الإبل عبداً أو خادماً . فأجابهم كما طلبوه ورضى عنهم بذلك الذي طلبوه .

ثم أمر بترك الإبل ، فأحضرت بين يديه وبست لقياد ^(٩) أن يكتب كل واحد ما ضاع قومه من الإبل ويأتون له بالمكاتب ^(١٠) ، فحسب كل واحد

(١) نبح : « في منزله بالبيع » .

(٢) القياس في جمع ساحة ، ساعات وسباح وساح . ولم يدر لماذا خصص المؤلف لفظة « أربع » بهذا الجمع دون غيرها من العاظ العدد الأخرى ، فقد أتى لها بالقياس .

(٣) نبح : « الزواج » ، « زوجة » .

(٤) نبح : « خالية مملنا » .

(٥) نبح : « رحالها أمامها » .

(٦) نبح : « وبليت » .

(٧) نبح : « وعنا عنهم المغفرة الكريمة » .

(٨) نبح : « الخدام جميعاً لا حادماً » .

(٩) نبح : « لقياد وكهلاء القبال » .

(١٠) نبح : « بالمكاتب الخالية من الخلال » .

ما ضاع لقومه وأزله بالكاتب ، فدفعها لكتابه ^(١) ، وصاروا يذكرون كل
كل قبيلة ومالها وكل طائفة ومالها ^(٢) ، وكما ذكروا قبيلة عين لما حفظها
حتى أتى عن آخرهم ، ولم يبق واحد منهم مات له جمل ، إلا أعطاه عوضه ^(٣)
أولاً كثر ، ودفن له عدده . ثم سأل على كضاع « لحزن الشرق » من
الحليل ^(٤) ، فأخبر بذلك ، فأعطاه تلك الحليل التي قدمت بها « الأحرار » .
فإدام فعله ذلك إكراماً وإجلالاً وإعظاماً . وقد كان وضعت يد
التجارب في كنهه مرآة الواقف ، وتوجهه بتصاديف الدهور ، وعرفته بمصاديفه
الأمور . فأوى على ملوك مصر ، بما أربط به الشمس على البدر ، وأبتر عن
النور . وقد قدمت فيها سبق أني سأذكر شيئاً من مدحه ، وأستفد طرفاً مما قيل
فيه - إن فتح الله على به - . والآن قدم من الله علينا بالفتح في الله : السيد
الحاج أحمد بن السيد محمد بن علال الفروسي ^(٥) ، داراً ومفتشاً ، حيث ورد عليها
فاصداً - حضرة سيدنا ، والغبى في نواله ، راجياً في آلائه . ومدحه بقصديتين ،

أردت أن أذكرها هنا ، للمناسبة ما قصدت ، وتوفية لما به وعدت ، لاسيما
وقد اشتملت أحداها على محاسن المسجد الذي حلم ^(٦) به الزمان ، وسار في
الأنفاق بحديثه الزكيان . والأخرى على نبيله « خريدة المعائب » ^(٧) التي

(١) نسخ : « وأزله بالكاتب فدفعهم لكتابه إزالة لومه » .

(٢) نسخ : « ومالها من أولهم لأخروهم » :

(٣) نسخ : « وعوضه وصده » .

(٤) نسخ : « من الحليل بالاشتجار » .

(٥) نسخ : « والفروسي » .

(٦) في جميع النسخ : « وأحلم » . والتصويب من قلنا .

(٧) على نبيله خريدة المعائب : الضمير في « نبيله » يعود على محمد الكبير ، =

لم يذكرها غير قاصد ولا مطالب . وهي هذه : (١)

لقد أبجز الآمال وهذا من النصر

كما أبجز الاقبال ما كان في التدر (٢)

وأعدى فزاد الفتح عذراء بلدة

منقطة الأرادف في الحلال النضر (٣)

تكلل بالشمس المديح جبينها

كما أبهى معصم تسود باليد (٤)

أحاط لها بالنشر من كل جانب

أسود الثرى والتيل يرمق عن شذر (٥)

والمراد بالتيل — هنا — مظلوه ومرغوبه ، وهو فتحه مدينة الأفواط ، التي
عبر عنها بـ « خريدة العجائب » .

(١) أى : القصيدة الرائية ، ذات العروض المقبوضة والضرب النام من
البحر الطويل .

(٢) الآمال : جمع أمل وهو الرجاء . وبجله من الأعراب التنصب ، لأنه
مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على محمد الكبير .

الاقبال : خلاف الادبار والمراد به — هنا — السعادة ، والحظ والثروة . وهو
مفعول به مقدم ، والماض مؤخر ، وهو ما — الموصولة ، القدر : — يسكون
إلئال — الطاقة ، والقوة .

(٣) فزاد الفتح : قلب النصر . وهو محمد الكبير . عذراء بلدة : بلدة بكر لم
يطعها أحد قبله ، وهي مدينة الأفواط .

(٤) تكلل : تتوج . معصم : موضع السوار من الرند . والشطر الثاني من
البيت يختل الوزن .

(٥) النشر : المكان الذي يخاف منه هجوم العدو . أسود الثرى : أسود =

عجبة ديماء وبكرا غريبة

فما هو من ديماء وناهيك من بكر ^(١)

فكم رام قوم فك حسن ختامها

فبادوا بخسران وندوا من المهر ^(٢)

لن ذلك الأبطال قهرا فزء

كما له كل الصب ذك بلا عسر

عمد المستغل الشهب مجده

على أنه في الأرض حازنى القصر ^(٣)

أمر له في الناس عدل وسطوة

فما له في تلك يرفع بالجر ^(٤)

بالتأنيب والاصل في الشرى مأسدة بجانب الفرات يضرب بها المثل في شدة غضب أسودها . الفيل : الأجمة ، ومقر الأسد .

يرمقن : ينظرون . القرد : النظر يؤخر العين من شدة الغضب ، أو الأمراض .

(١) الريم : الظئ الخالص البيضاء . غريبة : لم يحسبها التجارب . وفي مر : د عريضة . فئا عليك : فيكفئك . ومعنى البيت : أن مدينة الاغواط يسكنها أبكار حسان لا يشتغلان بشئ يكدر دليهن إحياتهن . فهن ملازمات خدمهن تحت رعاية ذويهن . فيكفئك : هنن كذل رائع في غاية الجمال ، الخلق ، والخلق .

(٢) رام : قصد فبادوا : رجوا . وندوا : امتنوا . المهر : الصداق . والخطر الثاني في بيع . نر : في ارجعهم في خيبة على المهر .

(٣) سنى القصر : رفعة الفضل وشهرته . القصر الأول من البيت غنل الوزن .

(٤) ومعنى البيت : أن المدح صاحب عدل وقوة ، وعامل رفعة يكون =

قد دوىخ الأرض البسيطة ملوه ^(١)
 لصاحب مرمى ^(٢) الحق أو صاحب البلور
 على رجبها ضاقت عمل وسم جنده
 ضح من بعد صدى قر البقر ^(٣)
 كان قرى الأغواط جمع مؤنث
 فيعمل فيه القصح جيشه بالكسر ^(٤)
 لذلك نرى الأغواط إن ذكر اسمه ^(٥)
 تفقد رأسا هل أين من الصر ^(٦)
 كان بلاد الشرق والغرب كفه ^(٧)
 فيأمر بالصران فيها وبالقتر
 إذا رام ^(٨) شخص أن يحدث قصه
 خلافا طوى عنه الأصابع بالصر

بالنطاع والجر ، وغيرهما من مظاهر قوته وخطوته وفي اليب ، تورية ، ،
 باستعمال الجر بمناه الاصطلاح القوية .

(١) يخ : « دله » ، والطول : « الذنبل والغطاء » .

(٢) « مرمى الحق » : هدفه ، الذي يتوخاه لرجل العادل .

(٣) « نقر البقر » : صلصلة السيوف القاطعة .

(٤) أي : كان قرى الاغواط مثل جمع المؤنث للأبكار ففتحها جيش محمد
 الكبير وكسرهما . وفي البيت تورية .

(٥) « اسمه » : اسم محمد الكبير .

(٦) « تفقد » : تفقد ، والصر يعمد على ، الاغواط ، ،

(٧) « كفه » : طيبة له مثل كفه .

(٨) « رام » : أراد .

فإن ^(١) كان في حوسبته الكون عابها ^(٢)
 وإن كان في سلم تر الكون في إيشر
 ترى مازن الأعداء حول خيانه
 مصارعها ^(٣) لوحش أكلا والطير
 إذ رام غزوا بشر الطير بضه
 ونادى منادى الوحش سبروا إلى الذعر ^(٤)
 فمن كل فج تقفو أثر نساله
 على قدرها ^(٥) حتى الخفافيش ^(٦) والمزور ^(٧)
 جواد له في الفضل أسنى مآثر
 مكارمه جلت على العهد والحمر

(١) تر : د ولو .

(٢) نغ : د عامها .

(٣) مصارعها : الضمير يعود على الأعداء .

(٤) الذعر : كل ما يحيا لوقت الحاجة . والمراد به — هنا — الفئمة .

(٥) على قدرها : على طاقتها وسطوتها . والضمير يعود على الثعلب .

أو على الخفافيش والمزور .

(٦) الخفافيش : مفردة خفافش . وهو نوع من الطير لا يبصر بالنهار
 ويسكن — غالباً — في جوف سيقان الأشجار . وفي الجحور أيضاً . ويقب

الجزران خلقه ، ويعترب به المثل في عدم الثبات ويقال له : الوطواط ، أيضاً .

(٧) المزور : — بكسر الميم — الطائش من الحشرات والقطر الأول
 من البيت ظهر موزون .

هو البحر جسودا والمزير^(١)

ودوخ الزبي علما وفي بسمة الزهر

توشح بالعلم الشريف حقيقة

لستة خير انطلق مستند الظير^(٢)

فصطنع المرووف في كل اهل

ولا^(٣) يضل الأشياء إلا على سر

فوق شاه انس جمع ظرف خصاله

لاذله قسم الصحيح على الكسر^(٤)

وحوره كسب المسكوم والجداء^(٥)

وأدهش في التريح^(٦) منه وفي الجذر^(٧)

(١) المزير : الأسد .

(٢) بخ : مستند الظير .

(٣) لا : فلا .

(٤) أى . هل أراد أحد من البشر أن يحصى خصاله الممودة لما استطاع أن يحصى جميعها ، لأن غنيا أعظم بكثير مما هو باد للبيان وهو الصحيح ، والكسر ، نومان من علم الحساب ، وفي البيت ثورية

(٥) الجداء : العطاء والسخاء .

(٦) التريح : قسم من علم الحساب . وهو مربع العدد ، الحاصل من ضرب العدد بنفسه ، فالتسعة — مثلا — مربع ثلاثة .

(٧) الجذر : قسم من علم الحساب ، وهو عدد مضروب في نفسه ، فالمعشرة — مثلا — جذر المائة ، لأنها مضروبة في عشرة . وفي البيت ثورية .

تستخرج الأسرار عند تقابل
 فراسة قبل الخطاب بالجهر^(١)
 إلا يا أنيل المجد^(٢) - بك لم يزل
 طويلا إلى أعتاق أعدائكم يجرى
 ودانت لك الآمال والسعد قابل
 عليك بصغر الخلق والحمر والسر
 وطافت^(٣) بك الآمال من كل جانب^(٤)
 نسوق لك المطلوب تحت أهل الأمر
 ولا زلت عزّا^(٥) يدرم ورفعة
 ولا زلت بمدودا من الله بالسر
 ودوت على الأبناء^(٦) سحب سادة
 تخله من أعمالكم طيب الذكرو
 فلما رأت عينا^(٧) ذاتها جودكم
 يتادى بأهل الصوت^(٨) حتى على البحر

-
- (١) . بالجهر : هكذا في جميع النسخ . ولعله : بالجهر ، بدى من ذلك .
 وفي البيت تورية .
 (٢) . أنيل المجد . عريق الشرف . وفي نر : يا طويل المجد
 (٣) . نغ : وطافت .
 (٤) . نر : جبهة . والشرط الثاني من البيت يمثل الوزن .
 (٥) . نر : حمر .
 (٦) . د الأبناء : أولاد محمد الكبير .
 (٧) . عينا . من عظم سواد عينا ، وانسمت مثلها . والشرط الأول من
 البيت يمثل الوزن . زيادة عن خموس معنى .
 (٨) . نر : جهرا .

ولين جمع ^(١) العالمين عداءه
 على نوعها حتى الثغالب والنسر
 نسيبك يترى الظير لحنا من البدا
 وسبيك ^(٢) يرى ^(٣) الناس من ألم الفقر
 علمت على بعد إليكم مطبق
 ولا من غوصاته ^(٤) طالب الدر
 وقلت انفسى ايشرى لقاصدى ^(٥)
 ونيل مرام واقتهال من الدهر
 شريتا من القرات لا نظماً بده
 وانظرونا بالكز الجبر لكسر ^(٦)
 خذونا خاصا غر باب مكار
 ودحنا بطانا معطين إلى الزكر
 سلام عليكم يهوج الكون زوره
 ويلاً بقاع الأرض من شح الطر
 يحبسكم ما دام مطلع مدحكم
 لقد أجز الآمال ^(٧) وعدا من النصر

(١) ر : جميع . .

(٢) سبيك : صطاوك وكرمك .

(٣) ر : يرى . .

(٤) ر : غوصته . .

(٥) فتح : المقاصد . .

(٦) كلا شطرى البيت عتلا الوزن :

(٧) فتح : الإقبال . .

وقال أيضا^(١)

لما التفت بوافد الحسن البهر
بزجى المطايا^(٢) مغربا^(٣) في عسكو
خاطبته أين المسير فأنى
أبصرت ما أدهى وأدهش منظرى
تأجاني بلسان طلق ناطقا
اسمع مقالى وع دقائق مخبر^(٤)
أئن العسا وفك رحل ركائبى
بالمسجد للثنى « يام المسكر »^(٥)

-
- (١) هذه القصيدة من بحر الكامل ، صحيح العروض والغرب معا .
(٢) بزجى المطايا . يسوقها برفق . وه المطايا . جمع مطية ، كمطبة .
وهى الناقة والبعير ، وكل دابة تركب .
(٣) « مغربا » : من أغرب في جريه ، إذا أكثر منه ، أو أغرب في الأرض .
إذا قصد الغرب . أو أغرب في الشيء ، إذا بالغ فيه .
(٤) الشطر الثانى من البيت محتل الوزن .
(٥) « أم المسكر » : مدينة مسكر . وهى مدينة البطولة ، والشرف الرفيع
والشجوة العريية ، والهمة الإسلامية ، ومنها بهمت الشجوة الوطنية . وقد كانت
فيما مضى قرية متوسطة يقطنها قبائل الاعراش وشرقا . « غريس » إلى زمان
مصطفى أبى الشلاش : فأنح مدينة وهران للمرة الأولى فقد حول إليها مركز
الولاية من مازونة . وسكنها فاصبحت منذ ذلك العهد مركزا لإدارة الدولة
ومستقرها . كما أصبحت فيما بعد مرمما لجيوش الأمير الحاج عبد القادر . ومكانا
لائقا لتسيير حكومتها .
والمسجد المذكور في البيت ، هو « مسجد عين البيضاء » الذى شيده محمد =

الحكم القشيد في شرفاته

فقداه يحسن كلرياضي للمطر

خلعت عليه الشمس حسن ودنّها

فلذلك يغلب أعين النظر ^(١)

لما رأت قمر السما ^(٢) خالفاً على

جبل ويرف بالسكان للتصير

فكانما اللبن المشيد سناه ^(٣)

حجر من البيت ^(٤) الجذيب الصور

لم يستطع شخص زوال نواظر

من تلك لكن من يدعي البصر ^(٥)

== الكبير في مرة مدينة مذكورة ، وكتب على أحد جدرانها :

« أمر بتشييد هذه الجامع المبارك ، خليفة السلطان السيد محمد باي بن عثمان . . . انتهى . — محمد الله — على يد المعلم أحمد بن محمد ، بن حجّ حسين ، بن صار مشق ، التلّساني — رحمه الله في أول يوم ذي القعدة عام خمسة وسبعين ومائة وألف . . . كتب الحروف محمد بن صار مشق . »

(١) يخ : فلذلك يغلب عينا المنظر . . والسطر الثاني من البيت غنّلت الوزن في جميع النسخ .

(٢) خالفاً : أي حجة جلة من أنواره البغية . والسطر الأول من البيت غنّلت الوزن .

(٣) سناه : معمول له مشيد .

(٤) البيت : أي نوع من الرخام النفيس تبلور فيه الأشياء وتتمسك عليه الصور .

(٥) البصر : أي بفتح الصاد — اسم يفهمون .

غابت زوايا خطوطه في وضعا
 فبحده شكل المربع مخبر^(١)
 فقرأ أصغر قائما في أحمر
 فان رأيت ناصع في أخضر
 روضا تخلخل نقة من مائة
 مقنعا بقناع نور أزمع
 ثم التقسام على مجود فوره
 من ظل وابله قيت الصبر^(٢)
 تحيا النفوس تنزها في شكله
 من حسن بهجته وذلك المنبر
 فكانما سوداء ونجبة غدت
 عليها سحلي من اللجوم الزهر^(٣)
 وسط المساحة قبة سرودة
 من فوق أبهى قوائم من مرمر^(٤)
 خرد^(٥) تجل على الفلافل موقها
 محصورة من غير آل الأصغر

-
- (١) «عبره» : — بكسر الباء — اسم فاعل . أى شكل مربع المسجد يقف بنا
 بمن بنائه ورواقه . والشطر الأول من البيت غير موزون .
 (٢) «قيت الصبر» : أوجعه ورائحته الطيبة .
 (٣) الشطر الثاني من البيت تحت الوزن .
 (٤) الشطر الثاني من البيت تحت الوزن .
 (٥) «الخرد» : — بفتح الحاء — المرأة الحسناء . وقد شبه هذا المسجد =

عجابه من مسجد في الأرض قد
ساكن السماء تطاولا في النفر
ولم يكن ^(١) فلك لما كانت به
زينة الكواكب والثريا به الحرى
تحويه مدرسة شدت آثارها
نعمه بالنعم الشريف الأشعري ^(٢)
نعمى رسوم الجبل من الواحه
نعمى شاطئه من الزود السرى
بناء الأمير ^(٣) محمد في القرب قد
لاحت آثاره كالصباح السفر
عبت رباح النصر لوني بلوده
ويهب للأعداء برح صرصر

== بامراء فائقة الجمال . وشبه أسطواناته بسقافها المنزهة عن الاخلال ، كأن
هذه الأسطوانات مطوقة ببعض الخلق الممدية القيمة من غير جلس الذهب ،
لأن الذهب محرم على ما سوى النساء في شريعة الإسلام ، وهو المبرر عنه
بـ آ ل الأصغر ، . والشطر الأول من البيت غير موزون .

(١) نغ : ديك . . والشطر الثاني من هذا البيت مخزل الوزن
(٢) الأشعري : نسبة إلى أبي الحسن علي الأشعري زعيم أهل السنة ومؤسس
المذهب ، المشهور في علم الكلام . وقد تنبأ عليه خلق كثير ، من أشهرهم الإمام
الكبير أبو الحسن الباقلي .

(٣) نغ : د أمير فاء . والبيت غير موزون بكلا شرطيه في جميع النسخ .

في جود هارون في عدالة ناصر
 في رأى كسرى في عظمة^(١) قيسر
 لم ير في قسح الوقائع طوفه
 بالظرف إلا بالسيل السر
 سقت^(٢) كالون البحر بل كالبدل بل
 كالشمس بل كالبارق المتعذر
 بشد سرا النجيع^(٣) غلاموه
 والشكل [قد] بنو بحسن الجوهر
 التي عليه الرعب من جلبابه
 ما ينهى الأعداء بالموث الأحمر
 من نار أخرجه الجرد ضفته
 كالأه يشتق أكل لحم المنحر
 لم يجمع الضدين^(٤) إلا سيفه
 عجبا نشأة عنصر من عنصر
 إن كان وصل الملك قد ما بن على
 محمد^(٥) وصاه فهو الهوى

(١) نبح : وفي ضخامة .

(٢) سقت : ضمير المخاطب منة يمود على الباي محمد الكبير .

(٣) النجيع : الطعام النافع .

(٤) الر : الضمدين .

(٥) نبح : بمجده .

فخر الزمان لك ^(١) من فضله
بين الأنام على زمان النذر
ومغزبة ^(٢) مع عرو والضحاك من
أولاد جفنة من أسارد ^(٣) حير
إن كان فيهم بالزمان تقدم
كم تشب الآثار للتأخر
خفعا بكف اليمين ^(٤) فإنها
خلوا لم يطمشها ^(٥) غير تسكر
وايق سيدا خاتم العلياء قد
كلت خصاك فاعتز ثم اخر

ومن هذه الحلو ^(٦) استأذنه « مخزن الشرق » في الانصراف ، فأذن لهم
فيه ، ورحلوا قرب الزوال ^(٧) ، وبقيت « الحقة » مقيمة على حالها ، ثم « أولاد
خليف » كذلك ^(٨) ثم استأذنه « الأحرار الشراة » أيضا ، فأذن لهم وانصرفوا

(١) مر : • تليده • .

(٢) مخ : • ومجذبة • .

(٣) مخ : • من ابتاء • .

(٤) مر : • لا يدين • . والضمير في • خلعا • يعود على القصيدة • .

(٥) لم يطمشها : لم يمسا • والشعر الثاني من البيت غفل الوزن • .

(٦) أي : • وراحة • .

(٧) مخ : • قرب الزوال لتغير الانصراف • .

(٨) مخ : • كذلك في ارتحالها • .

صد ما دفعوا الخيل والإبل ، التي اتوا بها^(١) ، بالتد ارتحل من «وزاحة»^(٢) والنمر ينفو أثره^(٣) ، وقدامه^(٤) . فسار أربع ساعات وزل قرب «الحليات» ، قوى زول الثلج ، واشتد البرد ، وتحرك الريح بعد سكونه وعريده . فاقام يومه ذلك للسكان ، ينتظر تبسم الجو وإذا بريح الصبا هبت وزحزحت السحاب حتى دبت ، في أجهاء السماء الصحو - حيث زال عبوس الغمام ، وظهرت الأودية والأكام أصبح مرتعلا . وكانت الطريق تمر على «الحليات» ، فوصلها وقت الضحى^(٥) وسار بجرا تارة وتارة رملا^(٦) ، إلى أن مضى من النهار ثمان ساعات ونصف ، فزل بموضع يسمى «واد الدهان»^(٧) . وقد وجدنا فيه ماء كثير من أثر المطر^(٨) ، وفدرا نه منسعة جدا ، بحيث تكفى الجيوش الكثيرة ثم ارتحل بالتد وتزل الواد الذي يزل من «دبة»^(٩) على ثلاث ساعات . ثم منه إلى «دير الكاف» ثمان ساعات .

ولما وصلت «الحلة» إلى هذه الدار ، وضربت أخبيتها^(١٠) أمرت

(١) نبح : د بها حصا .

(٢) نبح : د الرزاح .

(٣) نمر : د أمامه .

(٤) نبح : د وقدامه بالتحليات .

(٥) نبح : د الضحى بالزحزحات .

(٦) نبح : د وسيا وتارة رمل .

(٧) نبح : د واد الدهان الزلة الشهيرة .

(٨) نبح : د وفرايه .

(٩) نبح : د يزل للدريسة ، نبح : د يزل مندرسة .

(١٠) نبح : د أخبيتها للعيافة .

إليها [القبائل] (١) باللف والضيافة . فشكل قبيلة أنت بما قدرت عليه .
وقدست « الأحرار الضاربة » بقادتهم (٢) [إليه] (٣) . وأما الإبل التي كان
جعلها عليهم (٤) فأتهم قدموها إلى « عريس » ينتظرون بها قدوم سيدنا
— أيده الله — . ثم أصبح مرتحلا ، فصار ثلاث ساعات ، ونزل « ضاية » (٥)
سدى الطيب » ، فأتت الرعية — أيضا — بالضيافة والدف ، وكانوا
بالأمس (٦) . وبالحمد ارتحل وجاوز « راد المبر » ، ونزل بلاد « أولاد عوف »
على خمس ساعات ، فأتوه — أيضا — بالضيافة والدف (٧) ، وكذلك من بقي
من الرعية « كأولاد خالد » ، و « أولاد إبراهيم » وغيرهم (٨) ، ثم جئت
الناس ترد عليه من « المسكر » ، حتى وفراى ، وجماعات . واستمر قدلمهم
عل ذلك إلى البيات (٩) . وقد تهاثر بقدمه الدهر ، وقابل (١٠) أيامه بالأسماء
حق صادرة من حسناتها كالولسم والأعباد ، وهم خصبه الأهل والرعية والبلاد .
فزال عنهم كل غم ، وارتقت عنهم الأسزان والأنسكاد . وكانوا يريدون (١١)

(١) الزيادة من نخ .

(٢) بقادتهم : - بالالف المثلثة - بقوادهم والكلمة إقليمية .

(٣) الزيادة مع نخ .

(٤) نخ : « عليهم نصره الله » .

(٥) ضاية : هكذا في جميع النسخ . والله « ضيمة » .

(٦) نخ . « بالأمس لنيل الأرب » .

(٧) نخ « واللف لنيل المرات » .

(٨) نخ : « وظهرهم بالسوية » .

(٩) البيات : الليل .

(١٠) نخ : « وقبلت » .

(١١) نخ : « يريدون » .

ان يذوبه بالأهل والمال . وذكر وروده - عدم - أحلى من المذهب الزلال .
واحق الناس بالتقرب ^(١) والمال ، وأولاده يقول من قال ^(٢) :

لمرك قد سرت بلاد المشارب

سرور ضحىء بشر بالمشارب ^(٣)

وانسها من مرع الخصب ^(٤)

بعثت أن الروض ليس بآزب

قد استشرت روح الأمانى ^(٥) رواحها ^(٦)

وشامت ^(٧) بروفا أمت بالسحاب

وعند طلوع البدر ليلا تساقط

إليه تحيى واكها جد واكب

هذا ، وقد تضاعف الترح في ذلك اليوم ، وبات أكثر الناس يراقب
الصبح ، فلم يساعده النوم . وحين بقى من الليل ساعات ونصف ، جد
في السير ^(٨) .

(١) نخ . نج . اتقرب . .

(٢) هذه الآيات من وزن البحر الطويل المقبوض المروض والضرب معا .

(٣) الشطر الثاني من البيت يحتل الوزن .

(٤) نخ : رواحه . .

(٥) نخ : الأمان . .

(٦) نج : روحها . .

(٧) « شامت بروفا » : نظرت إليها أين تمطر وأين تنزل .

(٨) نخ : في السير بالانتداب . .

فلما وصل إلى « غريس » ، وجد خدامه : « الخازنية » تعرضوا له بإبل
 « الأحرار » . فزول منها أربعين رجلا ، قسموا على من مات له شيء بعد ما كان
 أعطى لكل من مات له عوض ما حلت له ؛ إلا أنهم ^(١) مات لهم بعد ذلك
 نحو الأربعين رجلا ، فأعطاهم بدلها ^(٢) ، والباقي ملبه كالعادة ^(٣) والسمة
 السابقة المتأداة . وحيث كملت الإبل بالطبع ^(٤) ، ركب ودخل له « لمسكر »
 وقد تم له ما أراد من الأشياء ، ونال الحمدة التي استعنى بها الاستسلام على
 الثريا ، فألقت مصاعها ^(٥) واستقرها النوى ، كما قرعينا - بالإياب - المسافر .
 وكان دخوله يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الثاني ^(٦) ، وقبر
 وقت العصر ، في أول الساعة الثامنة .

قد انتهى ما كنا أردنا جمعه ، وكل النرض ^(٧) الذي انتخبنا وضمه ونحرينا
 فيه جهدنا ، وجعلنا الاختصار وعدم التكلف فيه قصدا .
 فله الحمد على ما من به من إكالة ، والشكر له على ما منعنا ^(٨) من إندامه
 وإفضاله . ونسأله - سبحانه - أن يجعله موافقا لمن جمع لقرضه ، لا يكون

(١) بيع : . له . .

(٢) بيع : . هنا تحلية له . .

(٣) أي : ختم على ظهرها بالطابع ، حسبما جرت به العادة .

(٤) بيع : . بالطبع المشتهر . .

(٥) مصاعها : الضمير يعود على : الله .

(٦) بيع : . الثاني بالثامنة . .

(٧) بيع : . المراد . .

(٨) بيع : . منع : . ما منعنا . .

مؤدياً لبعض حقه علينا وفرضه . فقرأ كبر داع^(١) إلى جمعه ، وأقوى سبب وحامل^(٢) على وضعه .

قال ذلك [وكتبه]^(٣) فتبرره ، وأسير ذنبه : عبيد الله تعالى ، وأقل عبده ، وأحوجهم إلى توفيقه وتسليله ، أحمد بن محمد بن محمد [محمد]^(٤) (بنح الميم) بن علي بن أحمد بن هلال^(٥) ، طالباً من الله تعالى أن يعبر صدق قلوبنا ، ويغفر جميع ذنوبنا ، وأن يحمل استمدادنا لمعادنا .^(٦) إنه ولي ذلك والقادر عليه .^(٧)

وصلى الله على سيدنا محمد [وصحبه]^(٨) وآله عدد ما ذكره الذاكرون .
وعمل عن ذكره القائلون . « وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »^(٩)
« سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين »^(١٠) .

(١) نوح : . داعيننا . . نوح : . داعي . . والتصويب من قلنا .

(٢) نوح : . سبباً وحاملاً . .

(٣) الزيادة من نوح

(٤) الزيادة من نوح .

(٥) نوح : . ابن هلال . كان الله له يوم تراءى الأهل .

(٦) نوح : . لمعادنا وأن يوفقنا لمعادنا . .

(٧) نوح - نوح : . عليه بكمال .

(٨) الزيادة من نوح .

(٩) سورة بولس ، الآية : (١٠)

(١٠) سورة الصافات ، (الآيات : ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢) ونوح : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجليل ، وهو سببنا ولعم الوكيل .

« كل تعييد هذه الأوراق عشية يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر الله
« ذى القعدة » سنة اثنتين بعد المائتين والألف ، على يد عبيد ربه ، وأحوجهم
إليه ، المقر بذنبه ، وتقصيره : محمد بن البشير بن محمد « آقراي » . التلغاسي
داراً ، ومنشأً . غفر الله له ، ولوالديه ، ولأشياخه ، ولجميع المسلمين والمسلمات
والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء - منهم - والأموات . ولا حول ولا قوة
إلا بالله المل العظيم .
« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب الدالين » .

يوم (٢٢) ذى القعدة سنة (١٢٠٢ هـ) ، (١)

هذا ما تبسر لنا أن تأتي به ، وفق الأمر من قبل ومن بعد .

الحقق : محمد بن عبد الكريم

الجزائر ١٩٦٢/٤/٣ م

فهرس أهم المراجع

(١)

- ١ — أبو اسحاق بن عودة (المزارى) : مفلوح منذ السعد ..
(مخطوط تحت ملكنا)
- ٢ — أحمد بن علي بن سحنون : الثغر الجاني ، في انقسام الثغر الوهراني ..
(مخطوط تحت ملكنا)
- ٣ — أحمد بن هلال : رحلة محمد الكبير إلى الجناوب ..
(مخطوط تحت ملكنا)
- ٤ — أحمد بن هلال : رحلة محمد الكبير إلى الجناوب ..
(مخطوطان بالمكتبة الوطنية تحت رقم : ١٦٤٣ — ١٦٤٤)

(ح)

- ٥ — حسن خوجة التركي : در الأعيان .. (مخطوط تحت ملكنا)

(ق)

- ٦ — غورقوس (GORGUOS) : ترجمة (رحلة الباي محمد الكبير ..
(المجلة الافريقية لسنة ١٨٥٧م)

(م)

- ٧ — محمد أبو راس : عجائب الأسفار .. (مخطوط تحت ملكنا)

فهرس الموضوعات

الصفحة

- ١ - تقديم : ١١
- ٢ - التعريف بإعاحب الرسالة : ١٣
- (أ) لنبه . (ب) وظيفته . (ج) وفاته .
- ٣ - البائ محمد الكبير : ١٥
- (أ) التعريف به . (ب) اسمه . (ج) كنيته . (د) لقبه .
- ٤ - دور محمد الكبير في الحكم : ١٥
- ٥ - مدة مكث الأسبان بـهران : ١٨
- ٦ - استمداد محمد الكبير لفتح وهران : ١٩
- ٧ - أعماله وإنجازاته : ٢٤
- (أ) اعتناؤه بالفقراء والمساكين . (ب) حرمه على الثقافة والمتقنين .
- (ج) اعتناؤه بالتشيد والبناء : ٢٧
- ٨ - مكاتبه بين رؤساء الدول : ٣٩
- ٩ - أرمائه الحسية ، وأخلاقه المعنوية : ٣١
- ١٠ - ملاحظة عامة : ٣٢
- ١١ - منهاجنا في التحقيق : ٣٣
- ١٢ - الرسالة : ١٠٢-٣٤
- ١٣ - فهرس المراجع : ١-٤
- ١٤ - فهرس الموضوعات : ١٠٥
- ١٥ - فهرس الايات الكريمة : ١٠٦
- ١٦ - فهرس الأعلام والألقاب والكنى : ١٠٧
- ١٧ - فهرس القبائل والأجناس : ١١٠
- ١٨ - فهرس أسماء الكتب : ١١٢
- ١٩ - فهرس أسماء الأماكن والبلدان : ١١٤
- ٢٠ - فهرس القوافي الشعرية : ١١٨
- ٢١ - فهرس الألفاظ المعجمية والأقليمية : ١٢٥

هذا الكتاب

يتناول ثلاثة عناصر عامة : من تاريخ الجزائر
الإقليمي - على عهد الأتراك هناك - تلك
المنابر التي قد أجددها في سائر المؤلفات التي
تناولت تاريخ الجزائر العام .

العنصر الأول : إبراز الحوادث الحقيقية ، التي عاشها المؤلف
وشاهدتها بمرأى العين ، بما فيها الاضطرابات
السياسية ، والثورات الداخلية ، والعوانة الإقليمية
التي يميز بها كل إقليم مما سواه .

العنصر الثاني : المنع السياسي الذي كان ينتهجه حكام الأتراك
نجاه المارقين عن الحكم . والمتمردين على
الأرضاء - آنذاك .

العنصر الثالث : الثقة التامة التي كان يتمتع بها علماء الجزائر
من طرف حكام البلاد ، وسواد عباد .

له كتاب جدير بالقراءة ١١١

التي

مجموعه